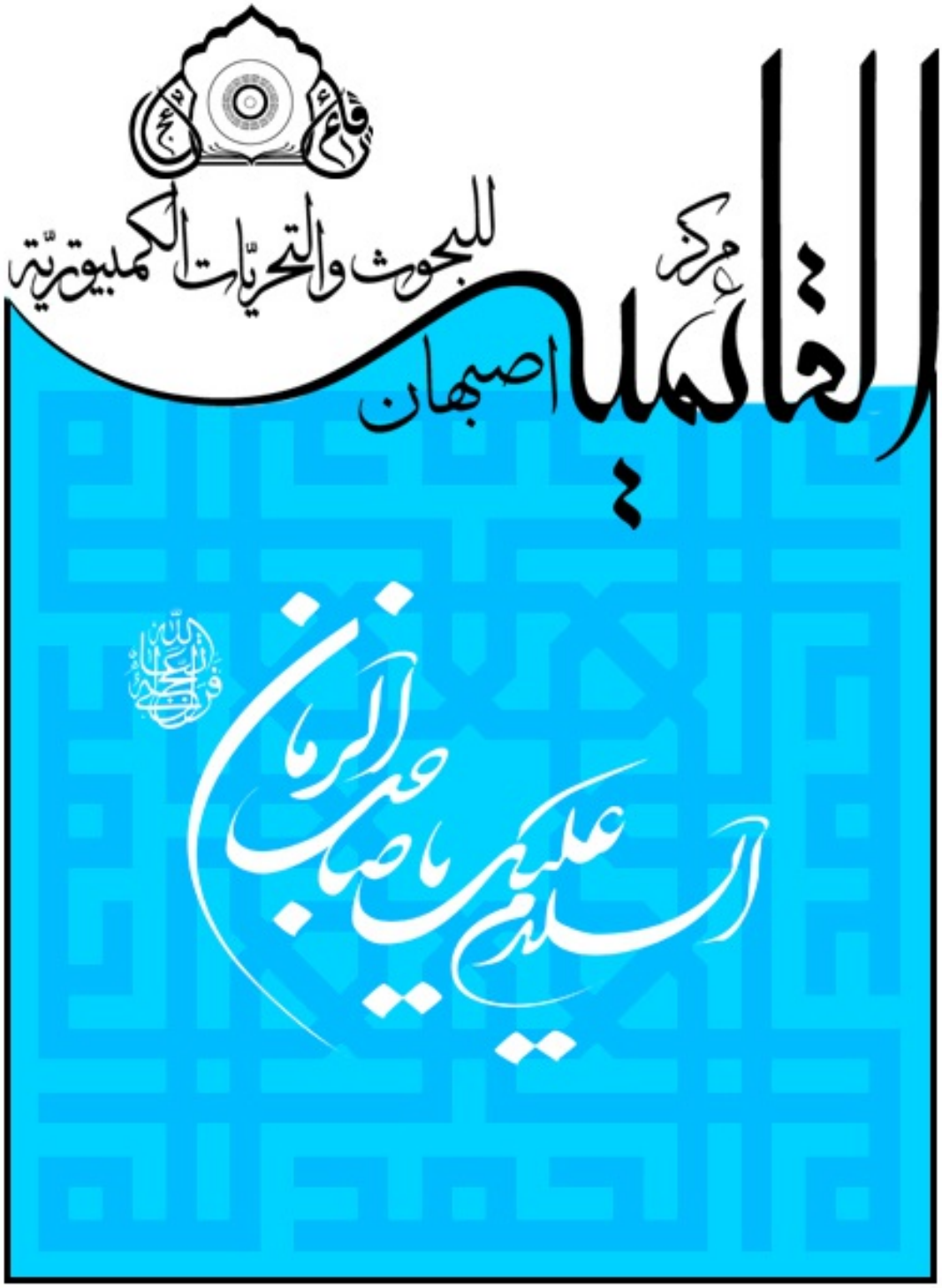

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الآن..
أصعب من الأيام

بسم الله الرحمن الرحيم

الا على او أصلب من الايام

كاتب:

سيد كمال

نشرت فى الطباعة:

دارالنبلاآ

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الا على او أصلب من الايام ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
فى البدء ----- ۱۰
البدايات ----- ۱۰
وهبط جبريل ----- ۱۱
الانذار ----- ۱۲
فوق جبل الصفا ----- ۱۳
لقاء فى الكعبة ----- ۱۳
هزيمة الشعر الجاهلى ----- ۱۴
سنوات الرماد ----- ۱۵
العام الحزين ----- ۱۶
الحياة فى موتكم قاهرين ----- ۱۶
رسالة من قبا ----- ۱۷
ومر عام ----- ۱۸
الا ذو الفقار ----- ۱۹
ويوم زاغت الأبصار ----- ۲۰
العدوان ----- ۲۰
راية الحب الخالدة ----- ۲۲
آية فى الطهر ----- ۲۳
آل محمد ----- ۲۴
مشاهد وآيات ----- ۲۵
محطات الجهاد ----- ۲۷

جعفر الطيار ---- ۲۸
وجاء نصر الله ---- ۲۸
الزلزال ---- ۳۰
حادثان ---- ۳۱
بنو جذيمة ---- ۳۲
الطريق إلى حنين ---- ۳۳
هارون ---- ۳۴
مشاهد ونبوءات ---- ۳۵
ارهاصات الرحيل ---- ۳۷
الخميس (۲۴ صفر ۱۱ ه) ---- ۳۸
الجمعة (۲۵ صفر ۱۱ ه) ---- ۳۹
السبت (۲۶ صفر ۱۱ ه) ---- ۳۹
الاحد (۲۷ صفر ۱۱ ه) ---- ۳۹
الاثنين (۲۸ صفر ۱۱ ه) ---- ۴۰
اصلب من الأيام ---- ۴۱
العاصفة ---- ۴۱
يا يوم الاثنين ---- ۴۱
علامات استفهام ---- ۴۲
اذا الشمس كورت ---- ۴۲
الثلاثاء (۲۹ صفر ۱۱ ه) ---- ۴۳
الصلاة ---- ۴۳
الغضب المقدس ---- ۴۴
على مع القرآن ---- ۴۵
رحيل فاطمة ---- ۴۵

توهجات الزمن الأول ---- ۴۶
مسار الأحداث ---- ۴۷
توهجات الزمن الثانی ---- ۴۸
الحوادث ---- ۴۹
اضاءتان ---- ۴۹
النهایة ---- ۵۲
شاهد عیان (۲۵ ذو الحجة ۲۳ ه) ---- ۵۳
مصیر الخلافة ---- ۵۳
و اما أنت یا علی ---- ۵۴
و جاء دور عثمان ---- ۵۴
توهجات الزمن الثالث ---- ۵۷
حوادث الزمن الثالث ---- ۵۹
الدین والدنیا. معادلة الصراع ---- ۵۹
اندلاع الثورة ---- ۶۰
مصرع عثمان ---- ۶۰
الحصار الأول ---- ۶۱
الحصار الثانی ---- ۶۴
صفین.. سقوط الحضارة ---- ۶۴
موقف أمة ---- ۶۴
العهد الجدید ---- ۶۶
حوادث یوم السبت (۱۹ ذی الحجة ۳۵ ه) ---- ۶۷
من هنا مر الشیطان ---- ۶۷
الطریق إلی البصرة ---- ۷۰
العجل الجدید ---- ۷۱

حوار مع الأصفر ---- ۷۲
مشهد فی البصرة ---- ۷۳
العاصمة الجديدة ---- ۷۴
ارهاصات الحرب ---- ۷۴
الحلف الدنس ---- ۷۵
الطريق إلى صفين ---- ۷۷
طبول الحرب ---- ۷۸
النخيلة ---- ۷۸
الظامئون ---- ۷۹
علی. المجد الأخلاقی ---- ۸۰
تقارير من قلب المعركة ---- ۸۰
فروسية ---- ۸۱
بدء الحرب الشاملة ---- ۸۲
الموت من أجل الخلود ---- ۸۳
الليلة الطويلة ---- ۸۳
مهزلة التحكيم ---- ۸۴
التاريخ يعيد نفسه ---- ۸۵
الاربعاء (۱۳ صفر سنة ۳۸ ه) مصرع حضارة ---- ۸۶
كتب فی يوم الأربعاء (۱۳ صفر سنة ۳۸ ه) ---- ۸۶
الكارثة ---- ۸۶
رياح الزمهرير ---- ۸۷
غارات الشتاء ---- ۸۸
موقف الإمام ---- ۸۸
الخوارج ---- ۸۹

العودة إلى صفين ---- ۸۹
غارات الزمهرير ---- ۹۰
الجمعة (۱۲ رمضان سنة ۴۰ ه) ---- ۹۲
صفين.. هاجس العودة ---- ۹۳
ليالى البرد ---- ۹۳
الخميس (۱۸ رمضان ۴۰ ه) ---- ۹۳
اغتيال الشمس ---- ۹۴
همسات قبل الرحيل ---- ۹۴
حديث مع الأجيال ---- ۹۶
نبوءات الزمن القادم ---- ۹۷
ليلة القدر ---- ۹۸
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---- ۹۸

الا علی او أصلب من الایام

اشارة

نام کتاب: الا علی أو اصلب من الایام

مؤلف: سید، کمال

موضوع اصلی: زندگانی

موضوع فرعی: زندگانی امام علی (ع) عربی

زبان: عربی

نوع مدرک: کتاب چاپی

محل نشر: لبنان، بیروت

ناشر: دارالنبلاء

تاریخ نشر: ۱۴۲۶ ق، ۲۰۰۵ م

نوبت چاپ: اول

تعداد صفحات: ۲۸۷

قطع و اندازه: رقعی

نوع جلد: شومیز

محل در کتابخانه: ۲۴/۵/۰/۴۳

شماره اختصاصی: «۱۰۵۶۳»

فی البدء

لا ـ یعدو الکتاب الذی بین یدیک عزیزی القارئ أن یکون محاولةً لاستکشاف شواطئ بحر لا نهائیّ.. وما فصوله سوی توقّفات مع ومضاتٍ من الجانب التسجیلیّ لحیاة ذلک العظیم..

لقد أحسست منذ «البدایات»، أننی سأضیع فی عالمٍ زاخر بالنجوم.. وفی کل مرّة کنت أثوب إلی نفسی فأعود إلی الشواطئ، وأکتفی بتأمّل الأمواج من بعید..

کنت واثقاً بأنّ الاقتراب أکثر سوف یؤدّی بی إلی الغرق.. من أجل هذا اکتفیت فی رحلتی بالضفاف.. وفی رأیی سوف تبقی الکتابة فی کلّ شیء أمراً ممکناً.. «إلاّ علیّ».

فی ظِلال محمد صلّی الله علیه وآله

کنتُ أتّبعه اتّباعَ الفَصیل أَثَرَ أُمّه...

البدایات

مضت علی عام الفیل ثلاثون سنة، وقد أضحت قصة أصحاب الفیل مجرّد ذکریات یحکیها الأجداد للأحفاد، حتّی إذا أطلّ عام ۶۰۰ للمیلاد کانت الکعبة علی موعد مع حادث جدید.

بدا أبو طالب سيّد مكّة وشيخ البطحاء حزيناً، كان آخذاً سَمْتَه صوب الكعبة يتضرع إلى إله إبراهيم وإسماعيل، فلقد اشتدّ بزوجه الطَّلق وتعسّرت الولادة.

كانت غيمة حزن تطوف وجهه المضيء، وضع ابن عبدالمطلب كفّه على جبينه، وقد طغت على وجهه الكآبة، قالت نسوة من العرب: ما شأنك يا أبا طالب؟!

أجاب ابن راعي البيت:

إنّ فاطمة بنت أسد في شدّة المخاض.

وضع يديه على وجهه ليحجب حزنه؛ ربّما ليُغمض بصره لتنفتح بصيرته على عوالم سماويّة.

وأقبل «محمّد» رجل في الثلاثين فألفى عمّه وكافله وحامي طفولته غارقاً في حزن مرير. ومدّ الشاب يده إلى عمّه يساعده على النهوض، ووجد الشيخ نفسه ينقاد مع ابن اخيه، فطالما رأى بركات هذا الفتى الهاشميّ ذكرى شقيقه «عبدالله».

وجاءت ابنة أسد تحفّها النسوة إلى بيت الله. قالت وهي تتمسّح بجدران البيت العتيق:

ياربّ.. إنّي مؤمنة بك وبما جاء به رُسُلُك، وإنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل، فبحقّ من بنى البيت العتيق يسِّرْ عليّ ولادتي.

واشتدّ المخاض؛ وفي تلك اللحظات عندما يتّحد الإنسان مع السماء انشق الجدار لتلج فاطمة إلى جوف الكعبة.. إلى الاحضان الدافئة المفعمة بالسلام لتترك أهل مكّة في حيرة وذهول.

وتمرّ أيام ثلاثة، حتّى إذا أشرق اليوم الرابع خرجت فاطمة من أعماق الكعبة وهي تحمل صبيّاً في منظر ملائكيّ لا يقلّ بريقاً عن مشهد مريم ابنة عمران يوم جاءت تحمل عيسى بعد أن اشتدّ بها المخاض عند جذع النخلة.

وانطلق البشير إلى أبي طالب، فأقبل وأهل بيته مسرعين وقد غمرت الفرحة قلوبهم، وكان أكثرهم فرحة محمّد الذي ضمّ الصبيّ إلى صدره الدافئ وحمله إلى بيت أبي طالب.

وكما يومض البرق في السماء ومض اسم «عليّ» في ذهن أبي طالب؛ لقد كان عليّ هديّة السماء إلى الأرض؛ صبيٌّ خرج من أعماق الكعبة المعظمة كما تخرج اللؤلؤة من صدفتها الجميلة.

ونما علي يتخطّى الأيام والشهور، يتأمّل وجوهاً نَضِرة تحنو عليه وتبتسم له وتناغيه، وكان أحبّها إليه وجه يحمل اسماً جميلاً هو «محمّد»؛ وهكذا تدفّق نبع من الحبّ السماويّ بين محمّد وعليّ.

وتعصف أزمة اقتصاديّة بمكّة، ويعاني أبو طالب من وطأتها فقد كان كثير العيال؛ وهنا يتقدّم محمّد إلى عمّه الثريّ العباس ويقترح عليه التخفيف من أعباء سيّد مكّة وزعيم بني هاشم، ويرحّب العباس بذلك فيأخذ جعفراً ويأخذ محمّد وليد الكعبة عليّاً. وانتقل الصبي إلى ظلال وارفة لينشأ في بيت خديجة المُفعم بالمحبّة والسلام.

ومن ذلك التاريخ لم يفارق عليّ كافله ومعلّمه العظيم، وهكذا قُدّر لعلي أن يكون صورة مصغّرة لمحمّد المثال الأسمى للإنسانية عبر تاريخها الطويل.

هل رأيت الفصيل وهو يتبع أمّه، إنّه لا يشعر بالطمأنينة والأمن إلاّ في أحضانها أو بالقرب منها، وهكذا كان الصبي يتبع ابن عمّه يُلازمه كظلّ، يرافقه في طوافه حول الكعبة بيت إبراهيم، وينطلق معه صوب جبل حِراء موعده في كلّ عام، ولم يكن حراء قريباً بل كان يبعد عنها ثمانية أميال، وكان محمّد قد اختار في تلك السفوح غاراً لا يكاد يسع إلاّ لثلاثة أشخاص.

وكان محمّد يستغرق في تأمّلاته التي تأخذه بعيداً عن ويلات الأرض وأدرانها؛ وكان علي يراقب معلّمه يتعلّم من حركاته وسكناته وتأمّلاته ما يجعله يرى بوضوح حقائق العالم؛ لقد وعى عليّ كلّ التحوّلات الروحيّة لابن عمّه العظيم، فكان له كالمرآة الصافية تنعكس فيها شخصيّة محمّد، وتتجلّى فيها اخلاقه الرفيعة.

وهبط جبريل

وعندما بلغ الصبى العاشرة من عمره شهد بكلّ جوارحه أعظم حدث فى تاريخ الأرض يوم هبط الملاك يحمل البُشرى لمحمّد هاتفاً:
يا محمّد! أنت رسول الله.. وأنا جبريل.
ولقد أفزع هذا الحادث الشيطانَ، فأطلق رنّة يأس وهو يرى النور يغمر حراء وسيغمر العالم كلّه؛ وتساءل الفتى:
يا رسول الله ما هذه الرّنة؟!
وأجاب آخر الأنبياء:
هذا الشيطان قد أيس من عبادته.
وألقى النبىّ نظرة حبّ على أخيه الصغير:
إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى..
ومنذ ذلك التاريخ أى فى عام ۶۱۰ للميلاد وعلى يتشرّب آيات السماء وكلمات القرآن، وفى مجتمع غارق فى الوثنيّة حتى أذُنيه.
كان علىّ الفتى الوحيد الذى أضاءت فى قلبه حقيقة التوحيد التى جعلته ينظر إلى مئات الاصنام والأوثان المحيطة بالكعبة نظرة ازدراء ويتّجه بقلبه إلى السماء ... إلى الآفاق اللانهائيّة حيث تتجلّى عظمة الإله الأوحد.
وكان رسول الله ينظر نظر حبّ إلى مثالٍ إنسانىّ رفيع اختارته السماء ليكون عَوناً فى إبلاغ آخر الرسالات، فلقد حمل على كلّ ملامح محمد إلّا النبوّة.

الانذار

وانتقلت دعوة الإسلام إلى اطار أوسع عندما هبط جبريل بالآية الكريمة: وأنذِرْ عشيرَتَك الأقربين، واخفِضْ جَناحَك لمنِ اتّبعك من المؤمنين، فإن عَصَوك فقُل إنّى برىء مِمّا تعملون.
ورأى النبىّ صلّى الله عليه وآله أن يدعو بنى عبدالمطلب إلى وليمة فى منزله، فأمر علياً أن يُهيّأ لذلك؛ لقد كان طعاماً مباركاً شبع المدعوون منه لحماً وارتووا لبناً؛ فعلّق أبو لهب دون أدب قائلًا:
ما أشدّ سحر محمّد.
وبذلك فوّت الفرصة على النبىّ الذى اعتصم بالصمت، ونهض أبو طالب وهو ينظر إلى أخيه من أبيه نظرة غضب، ونهض الجميع.
وأدرك علىّ أن الجوّ لم يكن مناسباً للحديث فى أمر هامّ، بعد الذى تفوّه به أبو لهب.
وتمرّ الأيام ورأى رسول الله أن يدعو قومه مرّة أُخرى فقال لربيبه علىّ:
يا علىّ قد رأيتَ كيف سبقنى هذا الرجل إلى الكلام، فاصنع لنا غداً كما صنعت بالأمس واجمعهم لعلّى أكلّمهم بما أمرنى الله. وتمّت الدعوة عندما احتشد أربعون رجلًا من بنى عبدالمطّلب، وكان أبو لهب ينظر إلى محمّد ولكنّه لم ينبس ببنت شَفة فقد هيمن شخص أبى طالب على المكان، وكانوا يعرفون مدى حب سيّد مكة لابن أخيه محمّد، وتحدّث النبىّ بأدب يبهر كلّ من أصغى إلى منطقه، قائلًا:
ما أعلمُ إنساناً فى العرب جاء قومه بمثل ما جئتُكم به.. لقد جئتُكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى ربّى أن ادعوكم إليه.. فأيّكم يؤازرنى على هذا الأمر فيكون أخى ووصيّى وخليفتى مِن بعدى؟
وهيمن الصمت؛ كان علىّ يُصغى إلى النبى وعيناه تتألقان بحماس الشباب؛ فنهض يعلن استعداده المطلق فى نصرة النبىّ قائلًا:
أنا يا نبىّ الله.
وطلب الرسول من فتاه أن يجلس؛ وكرّر عرضه مرّة ومرّة ولكن دون جدوى، وفى كل مرّة كان علىّ ينهض، وتأثّر النبىّ لمنظره فاتّجه

إليه يُعانقه ويبكى وتمتم بكلمات تخترق الزمن: أنت أخى ووصيّى وخليفتى من بعدى.

وانتفض أبو لهب ساخراً كعادته، والتفت إلى أخيه شيخ مكّة:

قد أمركَ محمّد أن تسمع لابنك وتطيع!

وفى تلك اللحظات وُلِد الميثاق بين رجلَين تفصلهما ثلاثون سنة، وبرز علىّ لتحمّل مسؤولية لا ينهض بها إلاّ الأوصياء.

فوق جبل الصفا

الحقائق الكبرى تضطرم فى قلب محمد، تسطع بنور يكاد سنا برقه يُضىء العالم؛ ويأوى محمد إلى فراشه وهو ينوء بثقل الرسالات؛ وجاءت خديجة زوجته المؤمنة الصدّيقة فدثّرته بالغطاء وغادرت الحجرة تاركة رسول الله فى استراحة هانئة؛ وفجأة دوّى الصوت الذى سمعه فى حراء من قبل:

يا أيها المُدّثِّر، قُم فأنذِر، وربّك فكبِّر.

ودخلت خديجة لترى زوجها العظيم غارقاً فى تأمّلاته وجبينه ينضح عرقاً.. فقالت بإشفاق:

لِمَ لا تنام يا أبا القاسم!

فاجاب آخر الأنبياء فى التاريخ:

انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة.. أمرنى جبريل أن أُنذر الناس.

وانطلق رسول الله إلى جبل الصفا، حتّى إذا استوى على قمّته نادى بصوت عال:

يا معشر قريش!

وهبّ الرجال إلى الجبل، ونفوسهم تتطلّع إلى ما سيقوله محمّد.. حتّى إذا اجتمع الناس هتف النبىّ صلّى الله عليه وآله:

أرأيتم لو أُخبرتُكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدّقون؟ وانطلقت صيحات التصديق من هنا وهناك:

نعم.. فأنت عندنا الصادق المصدَّق.. ما جرّبنا عليك كذباً قَطّ؛ وعندها أعلن النبىُّ رسالة السماء:

إنّى نذيرٌ لكم بين يدَى عذابٍ شديد.. لا إله إلاّ الله وأنا رسول الله!

وانتفض أبو لهب وجسمه البدين يكاد يتشظى حقداً قائلاً:

تبّاً لك سائر اليوم.

وتأثّر النبىّ بشدّة لموقف أبى لهب، وما لبث جبريل أن هبط يحمل سورة تتشظّى لهباً:

تَبّتْ يدا أبى لهب وتَبّ، ما أغنى عنه مالُه وما كَسَب، سيصلى ناراً ذاتَ لَهَب، وامرأتُه حمّالةَ الحطب، فى جِيدها حبلٌ مِن مَسَد.

وفى هذا المقطع الزمنى دخلت دعوة الإسلام أدقّ مراحلها وأكثرها حساسيّة؛ فقد انتشرت كلمات الله، وراحت تطوف بيوت مكّة، واستنشق شذاها المحرومون والمقهورون كما يستنشقون نسمات «الصبا» وهى تحمل لهم بشارة الربيع القادم.

ما أن ينشر المساء ستائره، وتتألّق النجوم فى صفحة السماء الصافية حتّى يشهد منزلُ النبىّ حركة غير عادية، حيث يهفو الظامئون فى غمرة الظلام إلى نبع النور كما الفراشات تبحث عن الشموع.

لقاء فى الكعبة

عبرت كلماتُ السماء حدودَ مكّة؛ انتشر شذاها فى ربوع الجزيرة؛ وشهدت جلسات السَّمَر فى مضارب القبائل أحاديث عن رجل مكّىّ اسمه محمّد، من بنى هاشم، وخفقت القلوب لكلمة التوحيد، فجاءت تقطع المسافات تتنسّم أخبار النبىّ؛ وذات يوم شدّ جُندَب من قبيلة غِفار الرِّحالَ إلى مكّة، فدخلها على حذر، واتّجه إلى الكعبة بيت الله الحرام عَلّه يعثر على ضالته؛ وراح يراقب عن كَثَب الوجوه،

فقد يرى محمّداً، ويُصغى إلى الأحاديث المتناثرة فلعلّه يمسك بخيط فيها يدلّه على النبيّ.. ولكن دون جدوى.

توارت الشمس خلف تلال مكّة، ودبّ المساء، وأقفرت الكعبة من الوافدين، والرجل الغِفارى ما يزال جالساً ينتظر، وقد اعتصر اليأس قلبه.. مرّت لحظات فدخل شابٌ حرم المسجد وراح يطوف حول البيت العتيق؛ ودار حوار مقتضب بينه وبين القادم الغريب:

من الرجل؟

من غِفار.

قُم إلى منزلك.

وأكبر الرجل الغفاريّ سماحة الفتى المكّى فنهض معه إلى منزله.

أمضى الغفارى ليلته فى بيت أبى طالب، فوجد من الكرم العربى والسَّماحة ما بعث فى قلبه الأمل، ولم يكن الغفارى ليعلم من يكون هذا الفتى؟

وفى الصباح عاد الرجل الغريب أدراجه إلى الكعبة وراح كعادته يتصفّح الوجوه ويُصغى إلى الأحاديث؛ وحلّ المساء، ومرّ الفتى وألقى كلمته بودّ:

أما آن للرجل أن يعرف منزله؟!

ونهض الرجل الغِفارى ملبّياً دعوة الفتى، ومضى معه إلى منزل كريم.

ويتكرّر ذات المشهد فى اليوم الثالث، وقد ارتاح جندب إلى ذلك الفتى الطيب، وإن لم يعرف هويّته بعد. والتزم الرجل الغريب كعادته الصمت وإن بدت الحيرة على وجهه، فسأل الفتى ضيفه:

أراك مفكّراً، ففيم تفكّر؟

ووجد الغريب نفسه يُصارح الفتى بشىء من الاحتياط:

إن كتمتَ علىّ أخبرتُك.

أكتم عليك إن شاء الله.

وارتاح الغريب لكلمة حبيبة إلى قلبه؛ فأفصح عن مهمّته التى جاء من أجلها مكّة:

بَلَغَنا أنّه قد خرج هنا رجل يزعم أنّه نبى، فأردتُ أن ألقاه.

أما إنّك قد رشدت، إتّبِعْنى حيث أذهب، فان رأيتُ أحداً أخافُه عليك قمتُ إلى الحائط كأنّى أُصلح نعلى فامضِ فى طريقك.

وهكذا سار الفتى وسار خلفه الرجل الغفارى، حتّى وصلا منزل النبيّ، وأسفر اللقاء عن إسلام جندب الذى اصبح اسمُه «أبا ذر»، ولم ينسَ المسلم الجديد أن يسأل رسول الله عن الفتى الذى دلّه عليه، فأجاب النبيّ صلّى الله عليه وآله باعتزاز:

هو ابنُ عمّى وأخى علىّ بن أبى طالب.

وتحوّل أبو ذر منذ تلك الليلة الحاسمة فى حياته إلى بُركان، بعد أن اضطرمت فى أعماقه حقيقة الإيمان، فهتف بعزم:

والذى بعثَكَ بالحقّ نبياً، لأصرخنّ بها فى المسجد الحرام.

ما أن أشرقت شمس اليوم التالى حتّى كان أبو ذر فى وسط المسجد يتحدّى جبروت قريش وهو يهتف بصوت جَهورى:

يا معشر قريش، إنّى أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله.

ولقد هزّت الصرخة الوضعَ السائد، ليبدأ فصل جديد فى تاريخ الإسلام.

هزيمة الشعر الجاهلى

ورأى زعماء مكّة مواجهة خطر الدين الجديد باستخدام أمضى الأسلحة وهو الشعر الذى بلغ العرب فيه الذروة آنذاك، وهكذا انبرى

أبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وابن الزِّبَعْرى وغيرهم إلى مُقارعة النبيّ، ولكنّهم وجدوا أنفسهم خاسرين لدى أول منازلة، ولم يصمد الشعر الجاهلي برُمّته أمام بلاغة آيات القرآن التي فتنت العربي بحلاوتها وطلاوتها وانسيابها وتأثيرها العميق.

ووقف العربي مشدوهاً أمام ظاهرة بلاغيّة لم تكن لتخطر على باله؛ وقد نصح الوليد بن المغيرة قريشاً بعد أن اعترف قائلاً: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه ليحطم ما تحته، وإنّه ليعلو لا يُعلى عليه؛ نصحهم أن يقولوا: ما هو إلاّ سحرٌ يُؤثَر أما رأيتموه يُفرّق بين الرجل وأهله وولده.

وقد لجّ كفار قريش في صراعهم مع النبيّ وقالوا أنّ ما يردّده محمّد لا يعدو أن يكون أساطير الأولين اكْتَتَبَها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلا؛ وينبري النضر بن الحارث إلى ترديد أساطير قديمة من قبيل حكايات «اسفنديار ورستم» الفارسية الأصل، واتّخذ مكانه في المسجد الحرام حيث يجلس النبيّ لتلاوة القرآن، ولم تُجدِ كلُّ المحاولات في صرف المأخوذين برَوعة البيان السماويّ عن الاصغاء لمحمّد، ولم يجدوا سبيلاً سوى إبداء النصائح قائلين: لا تَسمعوا لهذا القرآنِ والغَوا فيه لعلّكم تَغلِبون!

إنّنا نذكر ذلك لأنّنا سنجد الفتى عليّ بن أبي طالب سوف يبهر العرب ببلاغته بعد عقود من السنين، فلقد تشرّب آيات السماء منذ اعتناقه الإسلام يوم الثلاثاء.

سنوات الرماد

تفتّق ذهن أبي جهل عن فكرة شيطانيّة تقضي بمقاطعة بني هاشم اقتصادياً واجتماعياً، وقد تحمّس لها زعماء قريش فحرّروا بذلك صحيفة قاسية وقّعها أربعون رجلاً منهم يمثّلون طوائف قريش؛ وعُلِّقت الصحيفة في جوف الكعبة لكي تكتسب صفة مقدّسة.

جدير بالذكر أنّ فكرة المقاطعة هذه قد تمّ تداولها في «دار الندوة» وهو المكان الذي تجتمع فيه قريش لمناقشة القضايا المصيرية.

وكان أبو طالب عم النبيّ صلّى الله عليه وآله في مستوى التحدّي الجديد، فنصح قبيلته بالنزوح إلى أحد أودية مكّة لأن روح المقاطعة يتضمّن شكلاً من أشكال إعلان الحرب، وبات من المتعذّر على المحاصَرين مغادرة الوادي إلاّ في موسمَي الحجّ والعُمرة؛ وقد تفقّد أبو طالب الثغرات الموجودة في الوادي وبنى فيها تحصينات منيعة للحؤول دون تسلّل من يهمّه الاعتداء على حياة النبيّ الذي أضحى رمزاً لأكبر تحدٍّ يواجهه بنو هاشم وبنو عبدالمطلب.

ولقد كانت تجربة الحصار تجربة مريرة عانى فيها المحاصرون من الجوع والظمأ، ولكنّهم صمدوا حتّى النهاية، وكان أكبر همّ أبي طالب حماية النبيّ بأيّ ثمن، وأصبح من المَشاهد المتكرّرة أنّه كان يطلب من ابن اخيه العظيم أن يأوي إلى فراشه في ساعة الغروب حتّى يراه الجميع، فإذا غمر الظلام الوادي طلب من ابنه علي أن ينام في فراش ابن عمّه، فإذا كان هناك من يراقب النبيّ ويترصّده ليعيّن مكانه قبل أن يتسلّل لتنفيذ جريمته، فإنّه سوف يطعن قلب عليّ وبذلك ينجو محمّد صلّى الله عليه وآله وتستمرّ رسالة السماء.

وليس هناك ما يفسّر هذا الموقف سوى الإيمان.. الإيمان العميق لذلك الشيخ الوقور والسيّد المهاب.

ولنتصوّر مشاعر ذلك الفتى الشجاع وهو يتقدّم كلّ ليلة طائعاً لينام في فراش رجل تترصّده عيونُ الحقد تتربّص به خناجر الغدر، إنّه يعانق الموت كلّ ليلة فداءً للحبيب محمّد صلّى الله عليه وآله.

ولقد استمرّت أيام الحصار ثلاث سنين، وكانت الأُرضة تقضم خلالها البُنود الظالمة فلم تترك في الصحيفة سوى كلمة مقدّسة هي «باسمك اللهمّ».

ولقد بلغت النذالة لدى زعماء قريش أنّهم كانوا يشترون ما يُعرَض من طعام في مكّة لتخلوا الأسواق منه في الأيام التي يخرج فيها المحاصَرون في موسم الحجّ، حتّى إذا جاءوا ليشتروا طعاماً لم يجدوا شيئاً، فيعودوا لمواصلة رحلة الجوع المُضنية.

واستكملت الارضة التهام الصحيفة الظالمة ما خلا «باسمك اللهمّ» واتصلت السماء بالأرض، وجاء محمّد يبشّر عمّه أبا طالب، ووقف زعماء مكّة مذهولين أمام معجزة السماء، لقد قهرت هذه الحشرة الصغيرة كبرياء قريش، مرّغت غُرورهم بالوحل.

ولنتخيّل فرحة الصغار وهم يعودون إلى أحضان مدينتهم بعد معاناة طويلة فى الوادى.

العام الحزين

مضت شهور على انتهاء الحصار وكان أبو طالب الذى تخطى الثمانين يخطو صوب النهاية.. نهاية كلّ الحيوات، لقد هدّته السنون والحوادث.

وقف علىّ يتأمّل أباه بعينَين غارقتَين بالدموع، لقد توقّف القلب الكبير.. وسكنت تلك الأنفاس الدافئة، ووقف النبىّ صلّى الله عليه وآله يبكى بمرارة وهو يُؤبّن الراحل الكبير:

رحمك الله يا عمّ.. ربّيتَنى صغيراً وكفلتَنى يتيماً ونصرتنى كبيراً..

ولم يجد أحداً يواسيه سوى أخيه وربيبه فعانقه وقد أجهش بالبكاء.

ويسدّد القدر سَهماً آخر، وإذا بخديجة تلك الزوجة المؤمنة الوفية تسقط هى الأُخرى فريسة المرض، ولم تلبث أن ودّعت زوجها العظيم.

يا لعذاب الأنبياء! يا لصبر محمّد! الزمان يتخطّف أحبَّته مُذ كان جنيناً فى بطن أُمّه، وعندما بلغ ستّ سنين ويوم بلغ الثامنة؛ غير أن أبا طالب لم يغادر الدنيا حتّى خلّف فتى يفدى أخاه بروحه، ولم ترحل خديجة حتى قدّمت لزوجها فتاةً تذوب حناناً ورحمة لأبيها.

بدأ زمن الزمهرير والذئاب التى كانت تهاب أبا طالب ذات يوم، هى الآن تعوى، عيونها تبرق حقداً وقد ذرّ الشيطان قرنَيه.

الحياة فى موتكم قاهرين

سوف يبقى الموت والحياة لغزاً فى حياة البشر، فالضباب الذى يهيمن على العيون سوف يحجب الرؤية بوضوح لمن يريد الخلود، فأىّ الطريقَين يسلك: طريق الموت أم طريق الحياة؛ دعنا نراقب منزلاً كريماً فى مكّة وقد مضت ثلاثة عشر عاماً على هبوط جبريل فى غار حراء.

شعر المشركون بالخطر وهم يرون أبناء مكّة يفرّون بدينهم متّجهين شمالاً إلى مدينة يثرب، لقد قيّض الله لهم قوماً لنصرة رسالة السماء، وقد تتابعت هجرة المسلمين حتّى أقفرت أحياء بكاملها.

وأدركت قريش أنّ وقوفها مكتوفة الأيدى يعنى تنامى الخطر يوماً بعد آخر؛ وانبرى أبو جهل ليضع خطّة جهنمية لتصفية محمّد إلى الأبد.

وهبط جبريل يفضح خطّة الشيطان لإطفاء النور الذى أضاء جبل حراء وسوف يضىء العالم بأسره:

وإذ يمكرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتوك أو يَقتلوك أو يُخرجوك، ويمكرون ويمكرُ اللهُ واللهُ خير الماكرين.

وفى تلك اللحظات التاريخية بدأت واحدة من أعظم قصص الفداء فى تاريخ الإنسان.

ولا يمكن للمرء مهما أُوتى من سَعة الخيال أن يتصوّر مشاعر شاب فى الثالثة والعشرين من عمره وهو يتقدّم إلى معانقة الموت.

تسارعت الأحداث بشكل مثير، ونسجت قريش أخطر مؤامراتها كما تنسج العنكبوت بيتاً هو أوهن البيوت، ودعا النبىّ ابن عمّه الحبيب وأطلعه على فصول المؤامرة؛ وكان المطلوب من على أن يرقد فى فراش النبىّ، وكان همّ ابن أبى طالب الوحيد هو أن يسأل:

أوَ تَسلم يا رسول الله إنْ فديتُك بنفسى؟

نعم ... بذلك وعدنى ربّى.

وارتسمت مشاعر فرحٍ على وجه على، وتقدّم إلى فراش النبى ليرقد بسلام آمناً مطمئناً، فيما كانت عيون أربعين ذئب تبرق فى الظلام، وتمرّ اللحظات مثيرة وانسلّ رسول الله خارجاً من المنزل متّجهاً صوب الجنوب إلى غار فى جبل ثور.

واقتحم المتآمرون منزل رسول الله والسيوف تبرق فى غبش الفجر، وكانت المفاجأة أن هبّ علىّ من الفراش، وأسقط فى أيديهم.

وشهدت مكّة فى الساعات الأولى من الصباح حركة غير عادية، لقد رحل الإنسان الذى أرسلته السماء ليغمر الأرض بنور ربّها.

فُرسان الدوريات تبحث فى كلّ مكان، وقد رصدت قريش الجوائز المغرية لمن يأتيها بمحمّد حيّاً أو ميتاً أو يُدلى بمعلومات تساعد فى محاصرته.

ومكث على فى مكّة أياماً كان خلالها يتّجه إلى الأبطح فى الغدوّ والآصال فينادى:

ألا من كانت له قِبلَ محمّد أمانة فليأتِ لُتؤدّى له أمانتُه.

رسالة من قبا

وصل سيّدنا محمّد «قبا» وحطّ رحله فى تلك البقعة من أرض الله؛ ومن قبا بعث النبىّ صلّى الله عليه وآله رسالة إلى ابن عمّه يأمره فيها بالقدوم، وانطلق أبو واقد الليثى إلى مكّة وسلّم الرسالة علياً.

ترى لماذا هذا الاصرار على انتظار علىّ؟ لماذا ظلّ النبىّ على أبواب المدينة حتّى يقدم ابن عمه وأخوه؟ لقد وقف التاريخ الهجرى ينتظر تلك اللحظات الدافئة فى لقاء محمّد وعلىّ، هناك فى أعماق علىّ سرّ عجيب، عندما تضطرم الحقيقة الكبرى فى الذات الإنسانيّة فتُحيل كلّ ما حولها أشياءً متألّقة بضوء لا يستمدّ شعاعه من شمس ولا قمر، إنه الضوء القادم من قلب السماوات.. وهكذا كان إيمان ذلك الفتى أنّه لا يعرف فى الوجود سيّداً غير محمّد.. محمّد الذى فتح عينيه على ينابيع النور فى سفوح حراء.

لا شىء فى الأُفق سوى الرمال وذلك الخط الأزرق الذى يعانق سُمرة الرمال، ولاحت قافلة تسير على هون.. قافلة فيها أربع فواطم.. فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت محمّد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت الزبير. وفى «ذى طوى» كان المقهورون ينتظرون علياً لينقذهم من القرية الظالم أهلها، وسارت القافلة تشقّ طريقها فى بطون الأودية، ولا شىءَ سوى السماء الزرقاء والرمال السمراء.

علىّ يعرف أشياء كثيرة ... منذ عشرين سنة وهو يرافق رجلاً اختارته السماء، إنّه لا يرافقه فحَسْب بل يذوب فيه ويندمج معه.. لهذا فهو يعرف سرّ العالم.

شىء واحد كان يجهله تماماً ولا يعرف له معنى هو الخوف، لقد وقف الإنسان عاجزاً أمام لغز الموت نهاية كل الحيوات، هل هو نهاية أم بداية؟ ولكنّ علياً الذى اكتشف نبع الخلود قَهَرَ الموت أكثر من مرّة، وكان الموت يهرب منه، يفرّ من بين يديه كلّما أراد عِناقه.

لقد التحف قبل أيام ببُردة النبىّ وأغمضَ عينيه فى فراش تغمره رائحة الفردوس، إنّه يقدّم نفسه قرباناً لآخر الأنبياء فى تاريخ الإنسان؛ وإذا كان إسماعيل قد أسلم وجهه لله، فإنّه كان يدرك أن أباه سيذبحه على هون، ولكنّ علياً أغمض عينيه ليفتحهما على عشرات الخناجر المسمومة التى ستبضّعه، وسوف تتدفّق دماؤه من خلال مئات الجراح.

لقد تنافست الملائكة من أجل الحياة، لم يَفْدِ جبريلُ ميكال، واختار كلاهما الحياة، ولكنّ الإنسان الذى صاغته السماء حطّم حاجز الموت، كسّر قضبان الزمن الصدئة واختار الفداء.

القافلة تطوى المسافات.. حتّى إذا وصلت قريباً من «ضَجنان» أدركها «الطلب»، وإذا بثمانية فرسان يعترضون القافلة يريدون إعادة التاريخ إلى الوراء، وفى ذلك المكان فُوجئت جزيرة العرب ب «ذى الفقار» يتألّق فى دنيا الفروسية؛ كانوا ثمانية فرسان يريدون إعادة القافلة إلى مكّة.. إلى القرية الظالم أهلها.. العيون تبرق حقداً؛ هتف فارس لم يكتشف علياً بعد:

أظننت يا غدّار أنّك ناجٍ بالنسوة.. ارجع لا أباً لك.

أجاب على بثبات جبل حراء:

فإن لم أفعل؟

لترجعنّ راغماً.

وأغار «جناح» على النوق لإثارتها فاعترضه علىّ، فأهوى عليه جناح بضربةٍ تفاداها على وسدّد له ضربة جبّارة فقضى عليه؛ تسمّر الباقون وقد أذهلتهم المفاجأة.. إنّهم لم يَرَوا فى حياتهم ضربة كهذه؛ صاح أحدُهم وقد رأى الفتى يستعدّ لشنّ هجوم معاكس:

احبِس نفسَك عنّا يا ابن أبى طالب.

وهتف علىّ كأنّما يتحدّى العالم الوَثَنىّ بأسره:

إنّى منطلق إلى أخى وابن عمّى رسول الله.

وانطلقت القافلة صوب يثرب، وكان رسول الله ما يزال ينتظر فى قبا؛ ووقف التاريخ الإنسانى ينتظر قبل أن يلج عهداً جديداً من فصوله المثيرة فى المنعطفات التى تُغيّر فيها المدن أسماءها.

وفى السادس عشر من ربيع الأول الموافق ۲۰ أيلول عام ۶۲۲ للميلاد وصلت قافلة التاريخ الهجرى مدينة يثرب، وكانت الحُشود المسلمة تحدّق فى «ثنيّات الوداع» تترقّب وصول آخر الأنبياء فى تاريخ البشرية.

وكانت «القصوى» تشق طريقها إلى بقعة اختارتها السماء لتكون منزلاً ومسجداً وطهوراً؛ وتوقفت الناقة فى «مربد» لغلامَين يتيمَين من بنى النجّار.

وبُوشِر العمل فى بناء مسجد النبىّ صلّى الله عليه وآله وكان ذلك إيذاناً بميلاد أُمّة جديدة؛ وانسابت كلمات الأذان معبّرة أخّاذة كلحنٍ قادم من السماء.

ومر عام

استقبلت المدينة المنوّرة عامها الثانى بالأمل، فالحياة الجديدة تتدفّق والمسلمون أُمّة واحدة؛ وفى الخامس عشر من شعبان هبط جبريل يعلن تحوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وفى غمرة هذا العام المبارك تقدّم علىّ الذى بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة إلى خِطبة فاطمة بنت رسول الله، وتمّ الزواج المبارك فى مراسم غاية فى البساطة رعاها النبىُّ بنفسه، وقد بلغ من البساطة والشفّافية أن ترك بصماته واضحة فى التاريخ الإسلامى؛ وانتقل الزوجان إلى بيت دافئ مفعم بالمحبة والسلام.

وتمضى الحياة هادئةً كنهر تنثال مياهه على الشطآن، والمجتمع الوليد ينمو، يتفتّح للعطاء كشجرة أصلُها ثابت وفَرعها فى السماء؛ ولكنّ الذين تآمروا فى مكّة لإطفاء النور كَبُر عليهم نجاح محمد، لهذا فكّروا ودبّروا فلم يجدوا سوى الحصار التجارى سلاحاً لتجويع شعبٍ آمن بالله وكفر بالأوثان.

وهكذا شحّت الموادّ الغذائية فى المدينة وارتفعت الأسعار وتلاعب اليهود بالسوق؛ ولم يقف سيّدنا محمّد مكتوف الأيدى، فردّ كيد مكّة إلى نحرها وجرّد حملة عسكرية وقد أُذن للذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِموا وإنّ الله على نَصْرِهم لَقَدير.

وكان هدف الحملة العسكريّة اعتراض قافلة تجاريّة مؤلّفة من ألف بعير وتضمّ رؤوس أموال ضخمة؛ وفى مصادرة هذه القافلة يكون المسلمون المهاجرون الذين صودرت ممتلكاتهم قد استرجعوا جزءً من حقوقهم المُغتصَبة.

وتسارعت الأحداث بشكل مثير، وإذا بالأنباء تفيد عن تحرّك عسكرىّ خطير فى مكّة، وتَقدّمَ جيش مؤلّف من ألف مقاتل؛ وكان أمام جيش النبىّ المؤلّف من ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتل من المشاة باستثناء فارس واحد أن يحسم موقفه بين الانسحاب أو المواجهة؛ وأراد سيدنا محمّد معرفة مدى الاستعداد القتالىّ لأصحابه، فوجد لدى المهاجرين عزماً على القتال حتّى النهاية، ولدى الأنصار حماساً فى الطاعة يصل إلى اجتياز البحر الأحمر، وفى فجر السابع عشر من شهر رمضان وقرب آبار بدر التحم الجيشان فى معركة ضارية أسفرت عن انتصارٍ ساحق للجيش الإسلامىّ وسقوط سبعين قتيلاً من المشركين؛ وفى ذلك اليوم الخالد ارتفع اسم علىٍّ عالياً فى سماء الشجاعة والفروسيّة.

الا ذو الفقار

نجم عن هزيمة المشركين الساحقة فى بدر أن غيّرت قريش طرقها التجارية من الشام إلى العراق، وبالرغم من صعوبة ذلك وجهل قريش بالطرق الجديدة، إلّا أنها فضّلت ذلك مُرغَمة بعد أن أصبحت قوافلها التجارية على طريق الشام مُهدَّدة.

وفى مكّة كانت هند زوجة أبى سفيان تتحرّق حقداً وتترقّب ساعة الانتقام والثأر، وكان حقدها ينصبّ على ثلاثة نفر هم محمّد صلّى الله عليه وآله وعليّ والحمزة؛ وقد رفضت تلك المرأة البكاء والنوح على أبيها عتبة وأبنَيه لتحتفظ بأكبر مخزون من الحقد وروح الانتقام. ويمكن القول أنّ معركة أحد، إنّما جاءت استجابةً عمياء لروح الثأر التى ينطوى عليها عرب الجاهلية، وتقف هند وراء حماس أبى سفيان فى صراعه مع الإسلام، مع أنّ البيت السفيانيّ لم يكن أقلّ حقداً من غيره على سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله.

وفى شوّال وقد مرّت الذكرى الأولى لأكبر وأوّل انتصار إسلامى قرب عيون بدر.. بدأ المشركون بقيادة أبى سفيان زحفهم باتّجاه المدينة، وقد خرجت هند ومعها بعض النسوة يحملن الدفوف وينشدن أشعار الثأر، التى تخرج عن دائرة الحياء.

تلقّت المدينة الأنباء وبدأت الاستعدادات للمواجهة بعد جَدَل فى المسجد، ولكن النبيّ صلّى الله عليه وآله وقد رأى حماس الشباب فى القتال خارج المدينة لبس لامة حربه وحسم الأمر، وتحرّك الجيش الإسلامى؛ المؤلّف من ألف مقاتل، ولكنّ رأس النفاق ابن أبى سلول قرّر العودة ومعه ثلاثمئة مقاتل مُحدِثاً بذلك شرخاً واسعاً فى صفوف القوات الإسلامية وهى على وشك الاشتباك، وقد رأى بعض الصحابة مواجهتهم ولكنّ النبيّ رفض ذلك.. وفى جبل أُحد التقى الجمعان، وضع النبيّ صلّى الله عليه وآله خطة المواجهة مؤكّداً على احتلال مرتفعات جبل «عينين» وتمركز قوّة من أمهر الرماة مؤلّفة من خمسين جنديّاً مهمّتها الدفاع وحماية مؤخّرة الجيش الإسلاميّ من حركة التفافٍ قد يقوم بها العدو.

رتّب المشركون قواتهم فى صفوف مستفيدين من تجربتهم المريرة فى بدر، مقلّدين بذلك الجيش الإسلاميّ، فهى استراتيجيّة إسلاميّة فى القتال.

اشتعلت المعركة وكانت الجولة الأولى للمسلمين، وقد استبسل على فى القتال فكان ينقضّ على أصحاب اللواء من بنى عبدالدار فتساقطوا تسعةً الواحد بعد الآخر، وعندما سقط اللواء للمرّة الأخيرة دبّت الهزيمة فى قوّات الشرك، وأطلقت هند ساقَيها للريح وهى ترى أحلامها تذروها رياحُ الغضب الإسلامى.

وفى تلك اللحظات المثيرة تناسى الرماة وصايا النبيّ صلّى الله عليه وآله وغادروا مواقعهم من أجل الغنائم رغم صيحات قائدهم.

وهنا انتهز خالد بن الوليد الفرصة فقاد فرسانه فى حركة التفافٍ سريعة مفاجئاً مؤخّرة جيش المسلمين، فحدثت الفوضى وعمّ الارتباك صفوف المقاتلين، ومن ثم جاءت الهزيمة، وانتشرت شائعة حول مصرع النبيّ، وفى غمرة هذه الفوضى كان سيّدنا محمّد ومعه بعض أصحابه وفى طليعتهم عليّ بن أبى طالب يسطرون أكبر ملحمة فى المقاومة، وكانت كتائب الشرك تهاجم بعنف مركز القيادة، وكان على والزبير وطلحة وأبو دجانة والحمزة وحُذيفة ومصعب بن عمير وغيرهم يقاتلون ببسالة، وسقط مصعب شهيداً فأخذ على اللواء، وسقط حمزة سيّد الشهداء، والملحمة مستمرة، والكتائب تندفع نحو رسول الله، وهو يهتف بعليّ: دونك الكتيبة، وأُغمى على النبيّ من شدّة الجراح، وأفاق النبيّ صلّى الله عليه وآله، وقال لعليّ: ما فعل الناس؟ فأجاب: لقد نقضوا العهد ووَلّوا الدُّبُر؛ وفى تلك الأثناء انقضّت كتيبة مؤلّفة من خمسين فارساً، فهتف النبيّ بابن عمه:

اكفنى هولاء.

فانبرى عليّ وتصدّى لها بمفرده وأجبرها على التراجع؛ وفى تلك اللحظات وفى غمرة الغبار والقتال هبط جبريل قائلاً:

يا محمّد، إنّ هذه لَهى المواساة!

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله:

وما يمنعه من ذلك وهو منى وأنا منه.

فقال جبريل:

وأنا منكما.

وسمعت الأذن البشريّة فى تلك البقعة الملتهبة من دنيا الله صيحةً سماوية تملأ الفضاء:

لا سيفَ إلّا ذو الفقار.. ولا فتى إلّا علىّ!

ويوم زاغت الأبصار

أسفرت معركة أحد عن زعزعة هيبة المسلمين فى الجزيرة العربية إلى حدٍّ ما، ولكنّ سيّدنا محمّداً صلّى الله عليه وآله اتّخذ ما من شأنه استرداد مجد الإسلام، إذ عبّأ النبىّ صلّى الله عليه وآله جيشه بعد يوم واحد فقط من المعركة وقاد حملة لمطاردة جيش المشركين الذين فضّلوا الانسحاب مكتفين بما حقّقوه من نجاح مؤقّت؛ وقد رابط النبىّ صلّى الله عليه وآله فى «حمراء الأسد» مدّة ثلاثة أيام والجيش الإسلامى يشعل النيران ليلاً إمعاناً فى تحدّى المشركين الذين عسكروا فى وادى الروحاء لاتخاذ قرار حول مهاجمة المدينة المنورة، ولقد كان أبو سفيان يُدرك قبل غيره أنّ النصر الذى أحرزه جيشه فى أُحد كان بسبب مغادرة رماة الجيش الإسلامىّ مواقعهم، لهذا قرّر العودة إلى مكّة منحنياً للعاصفة.

وما يؤكّد هذا الرأى أنّ قوافل قريش التجاريّة ظلّت تسلك طرق العراق الأكثر صعوبة، ومع كلّ هذا فقد بدأ المسلمون يهدّدون هذه الطرق أيضاً مما جعل المشركين يشعرون بالذُعر، فالتجارة كانت عَصَب الحياة فى قريش.

وفى السنة الرابعة للهجرة وقع حادث خطير عندما حاول يهود «بنى النَّضير» اغتيال النبىّ صلّى الله عليه وآله، وقد أخفقت المحاولة فى اللحظات الأخيرة.. فقد تدخّلت السماء وأنذرت النبىّ صلّى الله عليه وآله بما دُبّر له. ونتيجة لهذا الانتهاك السافر لمعاهدةٍ بينهم وبين المسلمين قرّر الرسول صلّى الله عليه وآله تأديبهم، فحُوصرت قِلاعهم، وانبرى «عزّوك» لصبّ سهامه على خيمة النبىّ فأُبعدت قليلاً عن مرمى السهام، وقد سقط عزوك فى كمينٍ نصبه علىّ بن أبى طالب فقُتل هو وعشرة من أفراده، واخيراً استسلم يهود بنى النضير فتمّ ترحيلهم من المدينة، ويبدو أنّ حُيَىّ بن أخطَب زعيم بنى النضير قد اختار خيبر وفى رأسه فكرةٌ رهيبة للقضاء على الإسلام.

العدوان

يمكن القول أنّ فكرة غزو المدينة على النحو الذى وقع فى شوّال من العام الخامس الهجرى هى فكرة يهوديّة، وبالتحديد فكرة حُيَىّ بن أخطب، الذى وظّف ثلاثة عناصر هامّة: المال اليهودىّ، والحقد القُريشىّ الوَثَنىّ، والأطماع الغَطفانيّة بكلّ عمقها البشرىّ الهائل.

وهكذا فوجئت المدينة المنوّرة بأنباء مثيرة حول تجمّع قَبلىّ ضخم يربو على العشرة آلاف مقاتل.

وثار جدل واسع حول أسلوب مواجهة هذا الزحف الكبير، وفى غمرة النقاش طرح الصحابى الجليل سلمان الفارسىّ فكرة الخندق، وهى فكرة لم يألفها العقل العربى فى تلك الحقبة من الزمن، وقد حَظِيت الفكرة بحماس الجميع، وتحوّل سلمان فى نظر المسلمين إلى بطل.

وفى ظروف بالغة القسوة بوشر العمل بحفر الخندق فى الجهة الشمالية من المدينة، وهى المنطقة المكشوفة التى تشكّل نقطة الضعف فى دفاعات المدينة.

كان الفصل شتاءً والرياح القارسة تعصف بعنف، والعام عام مجاعة، وكان المسلمون لا يجدون فى بعض الأحيان ما يسدّ رمقهم، على أننا لا ننسى أنّ شهر رمضان المبارك الذى استوعب مدّة الحفر قد منح المؤمنين إرادة جبّارة جعلت من كلّ تلك المعاناة عبادة وتقرّباً إلى الله. كما لا ننسى مدى الألم الذى يستشعره المؤمنون وهم يسمعون الشائعات التى يبثّها اليهود والمنافقون، والتى اتّخذت

فى بعض الأحيان طابع السخرية اللاذعة.

وبالرغم من كلّ الظروف المريرة فقد استكمل المسلمون حفر الخندق قبل ثلاثة أيام من وصول جيوش الغزو، وفُوجئ أبو سفيان بخندقٍ هائل يحول بينه وبين كلّ أحلامه المريضة فى القضاء على الإسلام.

عسكرت القوات الزاحفة، وهيّأت نفسها لضرب الحصار، ومرّت الأيام قلقة مثيرة للأعصاب؛ رابطت القوات الإسلاميّة قريباً من الخندق، وحدثت مناوشات بالسهام، وفى غمرة الحصار تناهت إلى النبىّ صلّى الله عليه وآله أنباء حول تحرّكات مشبوهة لبنى قُريظة ونقضهم معاهدة الدفاع المشترك، بل ونيّتهم فى الانضمام إلى قوات الغزو، وكانت قلاعهم داخل المدينة ممّا يُتيح لهم طعن الجيش الإسلامى فى خاصرته، سيّما وأنهم يُشكّلون قوّة عسكرية ضاربة مجهّزة بأحسن الأسلحة ومؤلّفة من ألف مقاتل.

وتفاقمت الأخطار، وراح المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يتسلّلون من المعسكر الإسلامى ليلاً، فلم يبق مع النبىّ صلّى الله عليه وآله سوى ألف مقاتل فقط.

وفجأة.. حدث تطوّر عسكرى خطير عندما نفّذ عدّة فرسان من المشركين مغامرة جريئة فى اقتحام الخندق والعبور إلى الجهة الأخرى، وليس هناك أفضل من هذه الآيات فى رسم الحالة الخطيرة التى عاشها المسلمون فى واحدة من أخطر المنعطفات التاريخية: يا أيّها الذين آمنوا اذكُروا نِعمةَ الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوها وكان اللهُ بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم مِن فوقكم ومِن أسفلَ منكم وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنّون بالله الظُّنونا، هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزِلوا زلزالاً شديداً.

راح الفارس المغامر يخطر فى مِشيته ويقوم باستعراضات استفزازيّة متحدّياً الإسلام والمسلمين، وقد وصل به الاستهتار أن هتف ساخراً:

ألا مِن مشتاق إلى جَنّته؟!

وللأسف فقد سجّلت معنويات المسلمين أدنى مستوىً لها باستثناء فتى الإسلام علىّ بن أبى طالب الذى نهض منذ اللحظات الأولى للمواجهة، فأنقذ بذلك الكرامة الإسلاميّة، وسوف ينقذ المصير الإسلامىّ من أكبر كارثة.

نهض علىٌّ بثباته المعروف وشجاعته، وتقدّم نحو سيّدنا محمّد الذى أشرف شخصيّاً على تجهيزه للصراع.

وعندما انطلق علىّ إلى ميدان المواجهة الخالدة رفع النبىّ صلّى الله عليه وآله يديه إلى السماء لتخترق دعواتُه الغيوم المتراكمة:

اللهمّ إنّك قد أخذتَ منّى عُبيدةَ يوم بَدر، وحمزةَ يوم أُحد.. وهذا علىّ أخى وابن عمى، فلا تَذَرْنى فرداً وأنت خير الوارثين.

وكان من تقاليد القتال الفردىّ أن يعرّف كلّ طرف نفسه إلى الآخر، سأل الفارس المعلَّم خصمه:

من أنت؟

علىّ بن أبى طالب.

وهنا تغيرت نَبرة الخِطاب لدى عمرو بن عبد ودّ العامرى، فتظاهر بالاشفاق قائلاً:

ليبرز إلىّ غيرُك يابن أخى.. إننى أكره أن أقتُلك لأنّ أباك كان صديقاً لى.

ودار حوار قصير.. فقد عرض علىّ ثلاث نقاط على خصمه قائلاً: إنّ قريشاً تتحدّث عنك أنّك تقول: لا يدعونى أحد إلى ثلاث خِلال إلّا أجبتُه ولو إلى واحدة.

أجل.

فإنّى أدعوك إلى الإسلام.

قال ابن عبد ودّ:

دَع منك هذه.

أدعوك أن ترجع بمَن يتبعك من قريش إلى مكّة.

قال الفارس بكبرياء:

إذن تتحدّث عنی نساء مكّة بالجُبن.

وهنا قال علی متحدّياً الوثنية كلّها:

إذن أدعوك إلی المبارزة.

وغلت عروق الفارس المعلّم، فقفز من فوق فرسه وسدّد ضربة إلی حصانه فعقره، وهذا يعنی أنّه سيقاتل حتّی النهاية.

كان عمرو ما يزال فی فورة الغيظ فهجم علی خصـمه وسدّد له ضربةً جبّارة علیّ اتّقاها بدرقته ونشب السيف فی الحديد، وهنا ردّ علیّ بالمِثل فأنشب ذا الفقار فی عاتق الرجل الوثنیّ فسقط علی الأرض.. وانطلقت صيحة نصر من قلب الغبار:

الله أكبر.

وأدرك الجيش الإسـلامی أنّ علياً قد قتل خصـمه العنيد فانطلقت صيحات التكبير، وفی غمرة الذهول فرّ رفاق الفارس القتيل متجهين إلی الثغرة التی عبروا منها وسقط أحدهم فی أعماق الخندق، وراح المسلمون يمطرونه بالحجارة، فهتف وهو يتقّی الحجارة بيده:

يا معشر المسلمين قتلة أكرم من هذه.

وقـد أسـفرت المواجهـة عن نتائـج هائلة، إذ تغيّر ميزان القوی لصالح المسـلمين سيّما وأنّ عليّاً قد رابط ومعه مفرزة من المقاتلين عند الثغرة التی عبر منها المشـركون، وبهذا يكون قد فوّت آخر فرصة للعدوّ فی اقتحام الخندق واجتياح المدينة ومن ثمّ القضاء علی رسالة الإسلام إلی الأبد. وعاد بطل الإسلام إلی معسكره يبشّر رسول السماء بالنصر، واستقبله عمر بن الخطاب قائلًا:

هلّا سلبته درعَه فإنّه ليس فی العرب درعٌ مثلها. فقال علیّ مجسّداً أسمی مُثل الفروسيّة والإنسانية:

استحييتُ أن أكشف سَوءته.

راية الحب الخالدة

ظلّت خيبر تمثّل تهديداً خطيراً للوجود الإسـلامی، وكان سيّدنا محمد يراقب عن كَثَب التحرّكات اليهوديّة المشبوهة لتحريض القبائل العربية ضد الإسلام، سيما قبائل غطفان التی تحركها الأطماع فی السلب والنهب.

وتنامی الخطر اليهودی بعد توقيع معاهدة سلام بين المسلمين ومشركی قريش، التی فُسّرت علی أنّها تراجع للإسلام وضعف.

وفی شـهر صـفر من السنة السابعة للهجرة تحرّك الجيش الإسلامیّ المؤلّف من ألف وأربعمئة مقاتل صوب الحصون اليهوديّة المنيعة؛ وانتخب سيّدنا محمّـد صلّی الله عليه وآله الطريـق المؤديـة من خيبر إلی مضـارب غطفـان للحؤول دون أی تنسـيق بينهمـا أو وصول إمدادات عسكرية.

وبالرغم من عنصـر المفاجأة الـذی وفّره النبیّ صـلّی الله عليه وآله بجيشه إلّا أنّ مناعـة الحصون والقلاع اليهوديـة حالت دون سـقوطها رغم تشديد الحصار.

كانت الجزيرة العربية تراقب باهتمام الصراع المصيریّ، خاصّة قريش التی كانت تتمنی أن تدور الدائرة علی المسلمين.

أخفقت الحملات الإسـلامية المتكررة فی تحقيق تقـدّم يـذكر؛ وطالت مـدّة الحصار وقاربت المُؤن علی النفاد، وراح اليهود يسـخرون من المسلمين.

وفی تلك اللحظات التاريخية المثيرة هتف النبیّ:

لأُعطينّ الرايةَ غداً رجلًا يحبّ اللهَ ورسولَهَ، ويحبّه اللهُ ورسولُه.

وبات الجميع وهم يحلمون براية الحب الأزليّة.

أشـرقت شـمس اليوم التالی.. وتطلّع المسـلمون إلی مَن سـيمسك بالرايـة، ولم يطل الوقت حتّی ظهر علیّ بن أبی طالب والراية تخفق

فوق هامته.

قال النبیّ وهو یوصیه:

انطلق یفتح الله علیک.

وجسّد علیّ المَثَل الأعلی للجندیّ المسلم: تقدّم باتّجاه الهدف، ثمّ توقّف وسأل دون أن یلتفت إلی ورائه:

علی ماذا أُقاتلهم یا رسولَ الله؟

قاتِلهم حتّی یشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّی رسول الله.

وتقدّم علیّ والحماس یملأ صدره، حتّی إذا أصبح قریباً من الحصن رمی بدرعه لیتخفّف من وزنه ویکون أکثر قُدرة علی المناورة والحرکة، وأمر جنوده أن یفعلوا مثله.

ورأی الیهود فی علیّ بلا درع لُقمة سائغة، فهبط إلیه الحارث وهو غارق فی الحدید وراح یتهادی بغرور، ولم یمهله علی إذ قفز عالیاً ثم أهوی علیه بضربة مدمّرة فسقط إلی الأرض، وراح أبطال الیهود یبرزون إلیه الواحد بعد الآخر فیلاقون ذات المصیر، وانقلب الموقف وعمّ الحماس المسلمین الذین راحوا یسخرون من أبطال الیهود وهم یتساقطون عند قدمَی بطل الإسلام.

وهنا یقرّر مرحب خوض المعرکة المصیریة وإعادة روح الثقة بالنفس لدی الیهود.

تقدّم مرحب وهو مُثقَل بالحدید والزرد، وفی یده رمح طویل ذی ثلاث رؤوس؛ ولیس فی جسده الفارع ثغرة یمکن للسیف أن ینفذ فیها.

سدّد البطل الیهودی رمحَه باتجاه صدر علیّ، وأیقن الیهود والمسلمون بأنّها ستکون نهایة لعلیّ، ولکن البطل الإسلامی تحاشی الضربة وقفز فی الهواء عالیاً لیهوی بضربة أودعها غضب السماء. مرّت لحظات مثیرة ثمّ هوت کتلة الحدید فوق الأرض مُحدثة دویّاً رهیباً، وشعر الیهود بالرعب وانکفأوا داخل حصونهم، وهنا أعلن علیّ شارة الهجوم العام.

وفی لحظات سقط القموس وتساقط بعد ذلک سائر الحصون.

وظهرت علائم الارتیاح علی وجه سیّدنا محمّد صلّی الله علیه وآله، وفی غمرة هذا الفرح وصل جعفر بن أبی طالب من الحبشة علی رأس المهاجرین، وتضاعفت فرحة النبیّ صلّی الله علیه وآله حتّی سُمِع یقول:

واللهِ ما أدری بأیِّهما أنا أشدّ سروراً: بقدوم جعفر، أم بفتح خیبر؟!

وعانق علیّ أخاه بعد فراق طویل.

إنّ أعظم ما فی علیّ بن أبی طالب هو توازنه العجیب، فلقد ظلّ کما هو رغم کلّ هذه الأمجاد الحربیّة، وکان سیدنا محمّد صلّی الله علیه وآله لا یفتأ یذکر فضله واخلاصه، وکان علیّ یزداد حبّاً وولاءً لمعلّمه ومربّیه وأخیه العظیم.

آیة فی الطهر

رزق الله علیّاً صبیَّین هما ریحانتَی رسول الله، وتبلور مفهوم أهل البیت علیهم السّلام؛ وها هو سیّدنا محمد صلّی الله علیه وآله ینثر کلمات سماویّة لیجعل لهم مکاناً فی قلوب المؤمنین. لیکونوا نجوماً فی الأرض یهتدی بها الحائرون، وسفینةَ إنقاذٍ تشقّ عباب الأمواج الثائرة فینجو بها الراکبون، وباباً للرحمة والمغفرة.

وفی بیت أم سلمة هبط الملاک بآیة الطهر، فالسماء ترید أن تطهّر أهل البیت، وتجعل من ذویه أمثلة للناس جمیعاً، وتصفّد جبین محمّد صلّی الله علیه وآله وهو یتلقی کلمات من ربّه: إنّما یُرید اللهُ لِیذْهِبَ عنکم الرجسَ أهلَ البیتِ ویُطهِّرَکُم تطهیراً.

واستدعی سیدنا محمّد صلّی الله علیه وآله أخاه وابنته وسِبطَیه، لیضمّهم إلیه قائلاً: اللهمَّ هؤلاء أهل بیتی، فأذهِبْ عنهم الرجس وطَهّرْهم تطهیرا.

آل محمد

ستبقى سورة ال عمران شاهداً على مكانة أهل البيت، فهذه الأُسرة الكريمة التى طهّرتها السماء من أدران الأرض وباركها آخر النبوّات.. ستبقى وإلى الأبد معالمَ الطريق إلى الله.

فى حدود السنة السابعة للهجرة، والجدل اليهودى الإسلامى فى ذروته.. جاء وفد نجران، فالنصارى يريدون أن يُدْلوا بدَلْوهم ويقولوا كلمتهم فى غمرة الجدل الدينىّ.

جاءوا يجادلون فى طبيعة المسيح.. إنّه ابن الله، إنّه لا ينتمى إلى عناصر الأرض.

واستقبل النبىّ صلّى الله عليه وآله الوفد المؤلف من ستّين مسيحيّاً يتقدّمهم «العاقب» و «الأسقف».

استقبل النبىّ ضيوفه بودّ وخاطبهم بأدبه العظيم:

يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكُم ألّا نَعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشرِكَ به شيئاً ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله.

وشرح لهم آخر الأنبياء توحّد المسار النبوىّ عبر التاريخ:

آمنَ الرسولُ بما أُنزِل إليه من ربّهِ والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكتِه وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفرِّق بين أحدٍ من رُسُلِه وقالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المصير.

وتساءل الوفد عن طبيعة المسيح ولم يكن له أب، فهو ابن الله.

قال النبىّ صلّى الله عليه وآله بلغة السماء:

ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلّا رسولٌ قد خَلَت مِن قَبْلِه الرُّسُلُ وأُمُّه صِدّيقةٌ كانا يأكُلانِ الطعام.

وتساءل الأسقف عن طبيعة المسيح وقد وُلد من غير أب، ولدته العذراء البتول؟!

وكان جواب السماء:

إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كمَثَل آدمَ خَلقَه مِن ترابٍ ثمّ قال له كُن فيكون.

واستاء الوفد ورفض أن يكون «يسوع» منتمياً إلى الطين، وهكذا وصل الجدل إلى طريق مسدود ف لن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتّى تتّبعَ مِلَّتَهم وعندما وصل الجدل ذروته هبط جبريل يحمل بلاغ السماء:

فمَن حاجَّكَ فيه مِن بعدِ ما جاءَكَ مِن العِلمِ فقُل تعالَوا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونِساءَنا ونِساءَكم وأَنفُسَنا وأنفسكم ثمّ نَبْتَهِلْ فنجْعَلْ لعنةَ الله على الكاذبين.

وفوجئ الوفد المسيحى بدعوة النبىّ صلّى الله عليه وآله للمباهلة وتحكيم السماء، فأرجأوا الأمر إلى غد.

وأشرقت الشمس وخرج النبىّ فى موكب عجيب.. كان يحمل سِبطَه «الحُسَين» وقد أخذ بيد سبطه الآخر «الحسن»، وكانت فتاة نحيلة القوام تمشى خلف أبيها العظيم لم تكن سوى البتول «فاطمة»، وكان زوجها يمشى خلفها.

وقف الأسقف مشدوهاً وهو يتأمّل وجوهاً مضيئة وفى فلاة تمتدّ بامتداد الأُفق.. جثا آخر الأنبياء فى التاريخ، وجثا خلفه أهل بيته، والتفت النبىّ إليهم قائلاً:

إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا.

تمتم الأسقف.

جثا واللهِ كما يجثو الأنبياء.

وخاطب الأسقف النصارى ناصحاً:

إنّى لأرى وُجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جَبَلاً لأزاله! وهتف محذِّراً:

انظُروا إلى الشمس قد تغيّر لونها، والأفق تنجع فيه السحب الداكنة.

وتقدم الأسقف إلى سيدنا محمّد وخاطبه متودّداً:

يا أبا القاسم، إنّا لا نُباهلك، ولكن نصالحك.

وهكذا انسحب الوفد المسيحيّ فى آخر لحظة، وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله بعد أن عاد الوفد إلى دياره

والذى نفسى بيده، إنّ العذاب تدلّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لَمُسِخوا قِردةً وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً».

لقد كشفت السماء المدى الذى وصل إليه علىّ بن أبى طالب عليه السّلام من السموّ حتّى أصبح نَفْسَ النبيّ صلّى الله عليه وآله.

وقد أكّد النبيّ صلّى الله عليه وآله نفسُه هذه الحقيقة فى الحديث النبوّى الشريف؛ وهو يخاطب عليّاً عليه السّلام قائلًا: أنت مِنّى بمنزلة هارون من موسى، ولكنْ لا نبيّ بعدى.

ومن يستكشف حياة هارون وعلىّ عليهما السّلام سوف يجد نقاط لقاء عديدةً فى حياة الرجُلَين، وأنّ عذابات علىّ هى امتداد لعذابات الأنبياء.

مشاهد وآيات

المشهد الأول: جلس العباس بن عبدالمطلب وطلحة بن شيبة يتفاخران.

العباس: أُوتيتُ من الفضل ما لم يُؤتَ أحد.. سقاية الحاجّ.

طلحة: وأنا أُوتيت عِمارةَ المسجد الحرام.

ومرّ علىّ بن أبى طالب ليُذكّر بالقيم الجديدة:

وأنا أُوتيت على صغرى ما لم تُؤتَيا..

وما الذى أُوتيت يا علىّ؟!

ضربتُ خراطيمكما بالسيف حتّى آمنتما بالله ورسوله.

نهض العباس غاضباً ودخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أما ترى ما استقبلنى به علىّ؟!

أُدعُوا لى عليّاً.

وجاء علىّ:

يا رسول الله، أصْدَقْتُه الحقّ، فإن شاء فليغضب، وإن شاء فَلْيرضَ.

ومرّت لحظات صمت، وتألقت حبّات عرق على جبين النبيّ صلّى الله عليه وآله.. لقد هبط جبريل يحمل آية:

أجعلتُم سِقايةَ الحاجّ وعِمارةَ المسجدِ الحرام كمَن آمن باللهِ واليومِ الآخِرِ وجاهدَ فى سبيلِ اللهِ لا يَستوون عند الله.

المشهد الثانى: فى بيت فاطمة، وقد جلس علىّ وزوجه وجارية اسمها فضّة، وكان الحسنان مريضَين.

وجاء سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وآله يعودهما ومعه صحابيان، قال أحدهما:

يا أبا الحسن، لو نذرتَ فى ابنَيك نَذراً إن عافاهما الله.

قال علىّ عليه السّلام:

أصوم ثلاثة أيام شكراً لله.

قالت فاطمة:

وأنا كذلك.

وقالت فضّة:

وأنا أيضاً.

وقال الحسنان:

ونحن نصوم.

وبعد أيام ألبس اللهُ المريضَين ثوب العافية، حان وقت الوفاء بالنَّذْر، فلقد نهض الحسنان من فراش المرض.. وعادت إلى وجهَيهما دماءُ العافية، والسماء تنتظر نذراً نذره الإنسان، نذراً يقدّمه إلى نفسه ليكون قريباً من عوالم مغمورة بالنور..

لا شيء فى منزل فاطمة.

انطلق علىّ إلى شمعون رجل من خيبر؛ رجل شهد انهيار حصون مليئة بالسلاح.. بالذهب.. بالذكاء أمام رجل لا يملك سوى سيف وقلب تنطوى فى حناياه النجوم. وها هو اليوم يأتى يطلب شيئاً عجيباً.. إنّه يطلب قرضاً ثلاثة أصواع من شعير.. الرجل الذى اقتلع باب «القموص» وقهر خيبر ... جاء يطلب حفنة من شعير.. وامرأته بنت محمّد.. تملك أرض «فَدَك».

تمتم شمعون وقد هزّته المفاجأة:

هذا هو الزُّهد الذى أَخبرنا به موسى بن عِمران فى التوراة.

طحنت فاطمة صاعاً.. الرحى تدور و «فضّة» فتاة تعيش فى منزل فاطمة.. تجمع الدقيق.. صار الدقيق عجيناً.. ثمّ خمسة أقراص: لكلّ صائم قُرص شعير!

النجم المهيب يهوى باتّجاه المغيب.. يُرسل أشعّة الوداع، يعلن نهاية يوم من حياة الإنسان والأرض.. الأُسرة الصائمة تتهيّأ للإفطار.. لقمة خبز تقيم أود الجسد الآدمىّ ليُكمل رحلته باتّجاه النور.

هتف إنسانٌ جائع:

مسكين! أطعِمونى أطعمكم الله.

وحده الصائم فى لحظة الافطار يُدرك آلام الجياع عندما تتلوى المعدة خاوية تبحث عن شيء تمضغه وإلّا مضغت نفسها.

قدّم الصائمون خبزَهم.. وأفطروا على الماء.. واستأنفوا رحلة الجوع.. الجوع زاد المسافر فى ملكوت السماء.. حيث تِلال النور وبُحيرات تزخر بالنجوم.. الجوع يُلجم الشيطان القابع فى الظلمات.. يسحقه فإذا هو خائر كثور محطّم القرون.

ومرّ يوم آخر والصائمون فى رحلة اكتشاف ينابيع الحبّ الأزلىّ.. وكلّ شيء آيل إلى الزوال إلّا الحبّ.. والحبّ نداء الله إلى النفوس البيضاء.

ومرّ يتيم.. يا لوعة اليُتْم فى ساعة الغروب.. الكائنات تعود إلى أوكارها، والطيور إلى أعشاشها، والأطفال إلى أحضان زاخرة بالدفء، وفى ساعة الغروب تتجمّع الدموع فى عُيون اليتامى كسماوات مشحونة بالمطر.. يتجمّع البكاء فى القلب.. والمرارة فى النفس، فكيف إذا اجتمعت مع الجوع.. وهل تتحمّل نفوس الأطفال البرد والجوع!!

نادى اليتيم فى لحظة الغروب الحزين:

أطعمونى.. ممّا أطعمكم الله.

هناك فى أعماق النفوس البيضاء كنوز من اللذّة، أين منها لذائذ البطن.. فكيف مع نفوس براها الجوع والنذر حتّى عادت شفّافة كالضياء، ساطعة كالنور..

لبّى الصائمون نداء اليتيم.. فباتوا ليلتهم يطوون رحلة مضنية تكاد تمزّق الجسد وتُحيله إلى حطام.. حيث يشهد عالَمُ الإنسان اللانهائىّ انتصار الملائكة وهزيمة الشيطان.. إلى الأبد.

السماء تراقب نفوساً فى الأرض تطوى مسافات الجوع وفاءً بنذرها؛ وفى اليوم الثالث مرّ أسير ينشد لقمة خبز أو تُميرات.

الأجساد ترتعش أمام أمواج الجوع.. العيون غائمة.. والوجود يغمره ضباب ودخان.. ورياحين النبوّات تهتزّ.. تذبل أو تكاد.. والنفوس تشتدّ نصوعاً والورود تضوّعاً..

فاطمة تزداد نحولاً.. غارت عيناها.. وصوتها زاد وَهناً على وَهَن وهى قائمة تصلّى فى المحراب..

وفى منزل آخر الأنبياء هبط جبريل يحمل هدية السماء.. سورة الإنسان، وإنها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هَل أتى على الإنسان حِينٌ من الدهرِ لم يكن شيئاً مذكوراً. إنّا خَلَقنا الإنسانَ من نُطفةٍ أمشاجٍ نَبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنّا هَدَيناه السبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً، إنّا أعتَدْنا للكافرينَ سَلاسلَ وأغلالاً وسعيراً، إنّ الأبرارَ يشربونَ من كأسٍ كان مِزاجُها كافوراً، عَيناً يشربُ بها عِبادُ الله يُفجّرونها تفجيراً، يُوفُون بالنَّذرِ ويخافونَ يوماً كان شرُّهُ مُستطيراً، ويُطعِمونَ الطعامَ على حُبّهِ مِسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنّما نُطعِمُكم لِوَجْهِ الله لا نُريدُ منكم جَزاءً ولا شُكوراً، إنّا نخافُ مِن ربّنا يوماً عَبوساً قَمطَريراً، فوَقَاهمُ اللهُ شرَّ ذلك اليومِ ولَقّاهُم نَضْرةً وسُروراً، وجَزاهُم بما صَبروا جنّةً وحريراً ... إنّ هذا كان لكم جَزاءً وكان سعيُكم مشكوراً...

ورأت فاطمة فى تلك الليلة ما لا عينٌ رأت، وسمعت ما لا أذن سمعت ولم يخطر على قلب بشر».

المشهد الثالث: الشمس تغمر مسجد النبىّ صلّى الله عليه وآله بالضوء، والرسول صلّى الله عيله وآله والذين آمنوا يُصلّون خلفه صفوفاً؛ الصمت يغمر المكان ما خلا تمتمات الصلاة.

ولما انفتل النبىّ صلّى الله عليه وآله من الصلاة دخل أعرابىّ.. يحكى فى هيئته عناء الصحراء وقسوتها، الثياب مُهلهَلة ممزّقة خرّقتها ريحُ السَّموم، والعينان غائرتان منطفئتان ذهبت ببريقهما مرارة الأيّام.

لم يجد الأعرابى سوى اللجوء إلى رسول السماء.. إلى ظِلالٍ وارفة، واحة مُضمّخة بشذى جنّات الفردوس. وأطلق السائل صيحة استغاثة، فخلف جدران المسجد صِبية وبنات.. أجساد عارية تنشد الستر، وبطون خاوية تبحث عن رغيف الخبز.

وظلّت نداءات الأعرابى دون جواب، ورمق الأعرابىّ السماء بعينَين غارقتَين فى حزن مرير:

اللهمّ اشهَدْ أنّى سألتُ فى مسجد رسول الله فلم يُعطِنى أحد شيئاً.

وفيما كان الأعرابى يهمّ بالانصراف رأى رجلاً يومى إليه.. خفّ إليه الأعرابى بلهفة، كان الرجل يصلّى، كان راكعاً لله ويده ممدودة، لم تكن الكفّ خالية ففى الخنصر خاتم فضّىّ.

نزع الأعرابى الخاتم، وعادت كفّ الرجل خالية.

ومضى الأعرابى فَرِحاً فيما ظلّ الرجل يصلّى لله. وتأثّر النبىّ صلّى الله عليه وآله فرفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهمّ إنّ أخى موسى سألك فقال: ربِّ اشْرَحْ لى صدرى، ويَسِّر لى أمرى، واحلُلْ عُقدة من لسانى يفقهوا قَولى، واجعَلْ لى وزيراً من أهلى، هارونَ أخى، اشدُدْ به أزْرى، وأشرِكْه فى أمرى فأنزلتَ عليه قرآناً ناطقاً: سَنَشُدّ عَضُدَك بأخيكَ ونَجعَلُ لكما سُلطاناً فلا يَصِلون إليكمُا بآياتِنا، اللهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك، اللهمّ اشرَحْ لى صدرى، ويسِّر لى أمرى، واجعل لى وزيراً من أهلى عليّاً اشدُد به أزرى.

وعَرَجت الكلماتُ تطوى المسافاتِ وتخترق مداراتِ الزمن، وهبط جبريل..

تفصّد جبين النبىّ صلّى الله عليه وآله عَرَقاً، تألقت فوق جبينه الأزهر حبّات العرق كقطرات الندى، وفاحت فى فضاء المسجد عطور الفردوس وأفاق النبىّ صلّى الله عليه وآله، وانسابت كلمات السماء كنهر هادئ:

إنّما وليُّكمُ اللهُ ورسولُهُ والذين آمَنوا الذينَ يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهم راكعون، ومَن يتَوَلَّ اللهَ ورسولَهُ والذينَ آمنوا فإنّ حزبَ اللهِ هُمُ الغالبون.

إنّ السماء ولا شكّ تأخذ بيد علىّ وترفعه عالياً، تمنحه ما منحت سيّد الخليقة محمّداً صلّى الله عليه وآله إلّا النبوّة.

محطات الجهاد

دخلت السنة السابعة من الهجرة، وكلمة الإسلام تطوف ربوع الجزيرة العربية كفَراشة تُبشّر بالربيع القادم.

وتهيّأ سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله ومعه ألفان من الذين آمنوا إلى قضاء عُمرة الحجّ، وأُخليت مكّة للزائرين؛ وكان زعماء قريش يراقبون عن كَثَب أفواج المسلمين وهى تنحدر من شمال مكّة إلى بطن الوادى؛ كان عبدالله بن رواحة آخذاً بخطام ناقة النبىّ، وعندما انكشف البيتُ للوافدين تصاعدت هتافات التوحيد من أعماق القلوب المؤمنة:

لَبّيك اللهمّ لبيك.. لبّيك لا شريك لك لبّيك.. إنّ الحمد والنعمةَ لك والمُلك، لا شريك لك ... ودخل النبىّ المسجد والتفت إلى اصحابه قائلاً:

رَحِم الله امرءً أراهم اليوم من نفسه قوّة.

واستلم الرُّكن ثم بدأ يهرول حول البيت، وهرول المسلمون خلف النبىّ صلّى الله عليه وآله سبعة أشواط وكان منظراً أدهش الوثنيّين.. وربّما تساءل بعضهم: كيف أمكن لهذا الطريد الذى خرج قبل سبع سنوات فارّاً بدينه أن يعود الآن ومعه ألفان من انصاره فيدخل مكّة دخول الفاتحين...

وفى تلك اللحظات دوّت نداءات لها مغزاها الخالد، وتجاوبت جنبات الوادى لهتافات المسلمين:

لا إله إلّا الله وحده.. نَصَر عَبْدَه.. وأعز جُنده.. وهزم الأحزاب وحده..

وشعر الوثنيّون بالغيظ والحقد وتذكّروا تلك الأيام المريرة فى ذلك الشتاء القارس، واستعادوا تفاصيل ذلك المشهد الخالد يوم سقط بطل الوثنيّة عمرو بن عبد ودّ عند قدمَى فتى الإسلام علىّ بن أبى طالب.

وكان همّ سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله أن يرسم صورة مشرقة لثقافة الإسلام الجديدة، ولا شك أنّ بعض أولئك الوثنيّين قد تأثّر لمنظر المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة؛ وهم يصطفّون للصلاة فتنساب آيات السماء معبّرة بليغة جميلة.

ومرّت ثلاثة أيّام، وأرسلت قريش وفداً يُذكِّر النبىّ بانتهاء الأجل الذى نصّت عليه معاهدة «الحديبية». وعرض النبىّ صلّى الله عليه وآله أن يقيم مأدبة طعام لأهل مكّة، فرفضت قريش اقتراح النبىّ وطلبت من المسلمين مغادرة مكّة.

جعفر الطيار

فى جُمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة الشريفة وقعت (معركة مُؤْتة) فى شمال الجزيرة العربية، عندما اصطدم الجيش الإسلامى بحشود الرومان والتى قدّر بعضُ المؤرخين أنّها ناهزت المئتى ألف جندى، حيث هوى زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبدالله بن رَواحة شهداء، فيما قاد خالد بن الوليد الذى أسلم حديثاً عملية انسحاب ناجحة!

وجاء نصر الله

خرقت قريش صلح الحديبية بتحريضها «بنى بكر» على قبيلة خزاعة حليفة المسلمين، وحاول بعض سادة قريش تدارك الموقف وفى طليعتهم أبو سفيان، الذى شدّ الرحال إلى المدينة لاستباق الزمن وتجديد معاهدة الحُديبية مع سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله.

غير أنّه قد فات الأوان، فقد سبقه وفد خزاعة الذى أطلق صيحة استغاثةٍ بالنبىّ صلّى الله عليه وآله مذكّراً إيّاه بالتحالف.

والتقى أبو سفيان سيدنا محمّداً صلّى الله عليه وآله.

قال أبو سفيان:

جئتُ أُجدّد العهد وأزيد فى أَمده.

سأل النبىّ:

إلهذا جئتَ يا أبا سفيان؟!

أجاب أبو سفيان بخبث:

نعم.

فسأل النبيّ صلّى الله عليه وآله:

فهل حدث عندكم ما يوجب ذلك؟

أجاب أبو سفيان وهو يخفى الحقائق الدامية:

كلّا.. نحن على صلحنا فى الحديبية لا نغيّر ولا نبدّل.

وشعر أبو سفيان أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يعرف ما حصل، فانطلق إلى ابنته رملة زوجة النبيّ صلّى الله عليه وآله وفوجئ بموقفٍ لم يكن يتوقّعه ابداً، فقد طوت أم حبيبة فراش النبيّ صلّى الله عليه وآله وقالت بشجاعة:

إنّه فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله وأنت امرؤٌ مشرك نجس.

فقال الوثنيّ متظاهراً بالأسى:

لقد أصابكِ بعدى شرّ.

فأجابت المرأة المؤمنة:

بل هدانى الله إلى الإسلام.

وأردفت تدعوه إلى النور:

واعجباً لك وأنت سيّد قريش وكبيرها تعبد حجراً لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغنى عنك شيئاً.

فقال أبو سفيان وهو يتشظّى حقداً:

بل الأعجب أنّكِ تريدين أن أترك دين آبائى واتّبع دين محمّد!!

أخفق أبو سفيان فى مهمّته، ولكنّه أضحى كالغريق الذى يتشبّث بأىّ شىء من أجل النجاة؛ فراح يستنجد بهذا وذاك دون جدوى؛ وانطلق الزعيم الوثنيّ إلى علىّ بن أبى طالب فلم يجد لديه استعداداً للوساطة، فاستشاره فيما يتوجّب عليه أن يفعل فى هذه الظروف السيئة، فقال علىّ:

إنّك من سادة كنانة.. ولا أرى لك إلّا أن تقوم فتُجير بين الناس.. ولا أظنّ أن ذلك يُجديك شيئاً.

وهكذا عاد أبو سفيان إلى مكّة صفر اليدين؛ واعتبرته قريش فاشلاً فى رحلته، وراح بعضهم يتهكم منه قائلاً:

لقد لعب فيك علىّ بن أبى طالب!

وفى ظروفٍ بالغة السرّية كان النبيّ يُعدّ العدّة للزحف باتّجاه مكّة وكان أكبر همّه أن يفاجئ قريشاً بحشود هائلة فيضطرّها إلى الاستسلام دون إراقة للدماء؛ وبالرغم من كلّ الاجراءات فقد تسرّب النبأ إلى أحد الصحابة، فسطّر أخباره المثيرة فى رسالة وبعث بها إلى مكّة، وكان قد استأجر امرأة لهذا الغرض.

وهبط الوحى يفضح هذه المؤامرة، فبعث سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله عليّاً والزبير على وجه السرعة لتدارك الموقف، وفى منطقة الحليفة أوقف الفارسان المرأة، واستجوبها الزبير بن العوّام، فأقسمت أنّها لا تحمل أيّة رسالة وانخرطت فى البكاء، فقال الزبير لعلىّ بعد أن فتّش الرحل تفتيشاً دقيقاً:

ليس معها شىء، ارجع بنا إلى رسول الله نُخبره.

فقال علىّ بلهجة تتدفّق ايماناً بصدق النبوّات:

يُخبرنى رسول الله أنّ معها كتاباً ويأمرنى بأخذه، فتقول لا شىء معها!!

وأقبل عليّ على المرأة مهدّداً:

واللهِ لئن لم تُخرجى الكتاب لأكشفنّك.

وانهارت المرأة وهى ترى سيف عليّ فقالت:

أعرِضْ عنى.

واستخرجت المرأة الكتاب من جدائلها.

واجتمع المسلمون فى المسجد وقد بان الغضب على وجه النبىّ صلّى الله عليه وآله:

أيّها الناس، لقد كنتُ سألتُ الله أن يُخفى أخبارنا عن قريش، وإنّ رجلاً منكم كتب إليهم يُخبرهم.. فليَقُم صاحب الكتاب قبل أن يفضحه الوحى.

وساد صمت رهيب، وكرّر النبىّ دعوته، وأخيراً نهض حاطب وهو يرتجف كسعفة فى ريح باردة:

أنا صاحبه يا رسول الله.

ودمعت عيناه وهو يقول:

واللهِ إنّى لمسلم مؤمن بالله ورسوله ما غيّرتُ وما بدّلت، ولكنّى امرؤٌ ليس لى فى مكّة عشيرة، ولى فيها أهل وولْد، فأردت أن أصانعهم.

وأمر النبىّ بإخراجه من المسجد، وراحت الجماهير تدفعه إلى خارج المسجد وهو ينظر إلى سيدنا محمّد بعينَين فيهما ذلّة الانكسار؛ وتدفّق نبع الإنسانيّة فى قلب رسول السماء فأمر باعادته وأوصاه ألّا يعود إلى مثلها ابداً.

واستكمل المسلمون استعداداتهم العسكرية وبلغت الحشود عشرة آلاف مقاتل، وغادر الجيش الإسلامىّ المدينة المنوّرة فى شهر رمضان المبارك سنة ٨ ه.

وصلت القوات الزاحفة مرتفعات «مرّ الظهران» المطلّة على مكّة، وأراد النبىّ التهويل من ضخامة الزحف الإسلامى، فأمر جنوده بايقاد النار فوق المرتفعات، وشعر أبو سفيان بالانهيار وهو يراقب النار وهى تضىء الصحراء المترامية.

ولم يجد الوثنيّون سوى الاستسلام وفتح أبواب مكّة للفاتحين.

وفوجئ أهل مكّة بمنظر سيدنا محمد وهو يدخل مكّة على ناقته مطرقاً برأسه تواضعاً، ولم تبدُ عليه أية ملامح تدلّ على نشوة النصر ولا شهوة الانتقام، لقد اتّسع قلبه الكبير لكلّ الناس حتّى لأولئك الذين آذوه وعذبوه وشرّدوه عن مرابع صباه؛ ولقد كان بإمكانه أن يُحيل مكّة إلى خرائب، ولكن محمّداً صلّى الله عليه وآله لم يكن يفكّر بافتتاح المدائن أبداً، فهمّه الوحيد أن يفتح القلوب ويقود الإنسان الحائر إلى ينابيع النور والأمل والحرّية.

الزلزال

لقد كانت لحظات مثيرة تلك التى شهدت انهيار الأوثان العربية، وسط هُتافات (الله أكبر) التى ملأت فضاء مكّة؛ وراح سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله يطوف حول البيت على ناقته «القصوى» ومئات الأصنام تتهاوى بين يديه لتتحول إلى أنقاض.

ها هو حفيد إبراهيم عليه السّلام يدخل المعبد وبيده فأس يهشم بها وجوه الآلهة المزيّفة، وكان «هُبَل» ما يزال جاثماً فوق الكعبة يحدّق ببلاهة، والتفت النبىّ صلّى الله عليه وآله إلى علىّ عليه السّلام، وتسلّق وليدُ الكعبة البيت الذى شهد ميلاده قبل ثلاثين سنة.

وتهشّم هبل تحت وقع ضربات علىّ، كان أبو سفيان يراقب تحطّم الآلهة بمرارة، ولعلّ تلك اللحظات كانت من أصعب ما واجهه أبو سفيان فى حياته.

التفت الزبير إليه قائلاً:

يا أبا سفيان، لقد كُسِر هبل...

وأردف وهو يستعيد هتافات أبى سفيان فى أحد: أُعلُ هُبل!:

أما إنّك قد كنتَ منه يوم أُحد فى غرور.

قال أبو سفيان بضيق:

دع عنك هذا يا ابن العوّام.. لو كان مع إله محمّد إله غيره لكان غير ما كان.

وارتقى بلال سطح الكعبة فى مشهد مثير، فهذا العبد المملوك قد جعل منه الإسلامُ بطلاً من أبطال الإنسانيّة، ولم يكن هناك من اسم أحبّ إليه من اسم محمّد صلّى الله عليه وآله.

ودَوَّت هتافات الأذان الخالد معلناً أن: لا إله إلّا الله.. الله أكبر..

حتّى إذا وصل بلال إلى اسم حبيبه رفع صوته كأشدّ ما يكون قائلاً: أشهد أن محمّداً رسول الله.

وسيئت وجوه الذين فى قلوبهم مرض.

لقد دمّر الزلزال أوثانهم، ومرّغ كبرياءهم بالوحل، وأحال مصالحهم وأمجادهم إلى مجرّد أنقاض، وبدّد أحلامهم المريضة فإذا هى هشيم تذروه الرياح.

لنراقب عن كثب هذا المشهد المضيء لنرى كيف يحاول رسول السماء إنقاذ الإنسان من براثن النفوس الجاهلية،ها هو سُهيل بن عمرو يحثّ الخطى مذعوراً إلى منزله، لقد دخل جيش محمّد مكة فاتحاً وقد حانت لحظة القصاص، أغلق سهيل باب المنزل بإحكام وجلس يترقّب، قال لولده وكان قد أسلم من قبل:

اذهب يا عبدالله وخُذ لى أماناً من محمّد.. إنّى لا آمن على نفسى..

وأضاف وهو يستعيد تفاصيل الماضى البعيد:

لأنّنى لم أجد أحداً أساء إليه إلّا واشتركتُ معه.. وقد حضرتُ مع قريش بدراً وأُحداً.

وتناسى الابن البارّ كلّ إساءات والده، وانطلق إلى ينابيع النور والرحمة إلى حبيب القلوب محمّد صلّى الله عليه وآله، قال النبىّ:

هو آمن.

والتفت إلى اصحابه يوصيهم بتناسى الماضى وفتح صفحة جديدة وبدء حياة جديدة:

مَن لقىَ منكم سُهَيلاً فلا يشدّنّ النظر إليه.. إنّ سهيلاً له عقل وشرف.

وأكبر المسلمون موقف النبىّ صلّى الله عليه وآله ازاء سُهيل.. سهيل الذى آلم قلب النبىّ فى مفاوضات الحديبية.. وتذكّروا كلماته وهو يطالب بمحو عبارة رسول الله من نصّ المعاهدة قائلاً: لو كنتُ أعلم أنّك رسول الله ما قاتلتُك.. بل اكتُب اسمك واسم أبيك!

وردّ النبىّ بحزن: واللهِ إنّى رسول الله وإن كذبتمونى!!

وجاء عبدالله يبشّر أباه بالطمأنينة والأمن والسلام.

واهتزّ سهيل للموقف النبيل، وحطّم الإنسان فى أعماقه السلاسل وهتف:

كان واللهِ بَرّاً.. صغيراً وكبيراً.

حادثان

مكث سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله والمسلمون فى مكّة خمسة عشر يوماً، ولعلّ علىّ بن أبى طالب الذى تخطّى الثلاثين قد تجوّل فى ربوعها الزاخرة بالذكريات، وربّما ذهب إلى حراء جبل النور، إلى الغار الذى كان يأوى إليه مع أخيه وسيّده العظيم؛ غير أنّ «الشيخ» الغارق فى السنين والحوادث لم يتذكّر سوى حادثتين فقط.. فرك جبينه بيده المعروقة وقال:

ذهب عليّ وهو بكامل زيّه الحربى.. يجتاز الأزقّة إلى منزل أخته أم هانئ، وعندما دخل فوجئت المرأة وكانت قد أجارت رجلَين من مكّة خائفين فأجارتهما.

قالت أم هانئ وهى تخاطب الجندى المسلم المدجج بالسلاح:

أنا أم هانئ بنت عمّ رسول الله!

وأماط عليّ اللثام، وارتسمت ابتسامة مشرقة على وجه شقيقته التى خفّت إليه تعانقه. وفى تلك اللحظة وقعت عيناه على المشركين فاخترط سيفه، هتفت أم هانى:

أنت أخى وتصنع معى ذلك.. لقد أجرتُهما.

قال عليّ:

أتُجيرين المشركين؟!

ألقت أم هانئ عليهما ثوباً واعترضت أخاها:

إذا اردتَ قتلهما فاقتُلنى معهما.

ولم يجد عليّ سوى مغادرة المنزل.

وانطلقت أم هانئ بعد أن هدّأت من خوف الرجلَين إلى خيمة النبيّ.. لم تجده هناك ووجدت فيه ابنته فاطمة..

وجلست أم هانئ تشكو ما فعله أخوها وزوج ابنة النبيّ:

ما لقيتُ من ابن أُمّى! لقد أجرتُ حموَين لى.. فتفلّت عليهما ليقتلهما!

قالت فاطمة:

لأنّهما يستحقان ذلك.. وما يجدر بكِ أن تجيرى المشركين.

وجاء النبيّ صلّى الله عليه وآله، ولمّا رأى أُمَّ هانئ هتف مستبشراً:

مرحباً بأم هانئ.

وشكت له أم هانئ ما حصل، فقال رسول الإنسانية:

قد أجرنا مَن أجرتِ، وآمنّا من آمنتِ.

وعادت أُم هانئ إلى منزلها تحمل البشرى للرجلَين الخائفَين.

كانت القبائل العربية تترقّب ما سيسفر عنه الصراع بين محمّد وقومه من قريش، وكانت مكّة بكل ثقلها الدينىّ والقَبَلىّ تمثّل أم القرى، فهى مركز الوثنيّة وحصنها الحصين.

بنو جذيمة

ومن هنا جاء فتح مكّة ليسجل النصر الحاسم والنهائىّ للإسلام فى مواجهة العقيدة الوثنيّة، وهكذا جاء اعتناق قريش للإسلام إيذاناً ببداية عهد جديد، ولكن ذلك لم يكن يمنع من وجود بعض الجيوب المشركة هنا وهناك فى طوايا جزيرة العرب.

وفى خطوة لنشر الإسلام على نطاق أوسع جهز النبيّ صلّى الله عليه وآله قوّة مقاتلة مؤلفة من ثلاثمئة وخمسين جنديّاً ضمّت الأنصار والمهاجرين لدعوة «بنى جذيمة» إلى الإسلام؛ وكان على رأس القوّة الإسلامية «خالد بن الوليد».

وللأسف.. فقد استيقظت فى نفس القائد ذكريات الجاهلية، وتحرّكت فى أعماقه روح الثأر من الذين قتلوا عمّه فى غابر الأيام.

وهرع بنو جذيمة إلى السلاح؛ فقال خالد وقد بيّت لهم الغدر:

ضعوا السلاح؛ فإنّ الناس قد أسلموا.

وصاح جحدم وهو رجل من بنى جذيمة:

ويلكم يا بنى جذيمة إنّه خالد بن الوليد، واللهِ ما بعد وضع السلاح إلّا الأسر، وما بعد الأسر إلّا ضَرْبُ الاعناق، ولكنّ بنى جذيمة مالوا إلى السلام وقال بعضهم:

يا جحدم، أتريد أن تسفك دماءنا!! فإنّ الناس قد أسلموا ووُضِعت الحرب وآمن الناس.

وألقى جحدم سلاحه، وهنا أمر خالد بأسرهم، وقتل جماعة منهم؛ واعترض عبدالرحمن بن عوف بشدّة قائلاً:

إنّك عملتَ بأمر الجاهلية فى الإسلام.

قال خالد مخادعاً:

لقد أخذتَ بثأر أبيك.

أجاب عبدالرحمن مستنكراً:

كذبتَ.. لقد قتلتُ قاتل أبى يومذاك.. ولكنّك ثأرت لعمك «الفاكه»، واخترط خالد سيفه وشهر عبدالرحمن هو الآخر سيفه، وتدخّل بعض المسلمين فأصلحوا بينهما.

وصلت الأنباء المثيرة إلى مكّة وتألّم النبىّ بشدّة لهذا الانتهاك والغدر.. ورفع يديه إلى السماء قائلاً:

اللهمّ إنّى أبرأ إليك ممّا صنع خالد.

واستدعى النبىّ أخاه علياً وسلّمه مالاً وقال:

يا علىّ اخرُج إلى هؤلاء القوم وانظُر فى أمرهم واجعَلْ أمر الجاهليّة تحت قدمَيك.

وانطلق علىّ إلى مضارب بنى جذيمة فى خطوة إصلاحيّة، ودفع تعويضات عن ضحايا الحادث وبعض الخسائر الأخرى.

قال علىّ:

هل بقى لكم بقيّة من دمٍ أو مال.

أجاب المنكوبون وقد طابت خواطرهم:

لا.

نظر علىّ فوجد لديه بقية من المال قد زاد، فقدّمها إليهم احتياطاً ممّا لا يعلم ولا يعلمون، وعاد إلى رسول الله يشرح له تفاصيل مهمّته، فقال النبىّ:

أصبتَ وأحسنتَ.

ورفع يديه إلى السماء مرّة أخرى تعبيراً عن استنكاره الشديد لما حصل:

اللهمّ إنّى أبرأ إليك مما صنع خالد.

قالها ثلاث مرات.

الطريق إلى حنين

يعدُّ ما حدث فى وادى حُنَين آخر المواجهات العنيفة بين الإسلام والوثنيّة.

كانت قبائل هوازن وثقيف التى تقطن الطائف قد وقفت موقفاً سلبيّاً حيال الإسلام فى مراحل الدعوة الأولى.

وعندما غادر سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله المدينة المنوّرة زاحفاً باتجاه مكّة ظنّت تلك القبائل أنّها ستكون الهدف من تلك الحملة العسكرية؛ وهكذا تدفّقت القبائل الوثنيّة إلى وادى حُنين وتمركزت فى المرتفعات المشرفة على الوادى فى خطّة ذكيّة لمباغتة الجيش الإسلامى؛ وقد ضمّ التجمّع الوثنىّ قبائل هَوازن وثَقيف ونصر وجشم، وبلغت الحشود العسكرية اثنى عشر ألف مقاتل؛ وكان

الجيش الإسلامى يتألّف من اثنى عشر ألف جندى هو الآخر.

وقد بلغ من تهوّر الزعيم الوثنىّ الشابّ أن هدد بالانتحار إذا لم تنفّذ القبائل المتحشدة تفاصيل خطّته دون قيد أو شرط، وكانت خطّته تستند إلى رُكنَين. الأوّل: ضمان عنصر المفاجأة فى احتلال المرتفعات ومباغتة الحشود الإسلاميّة بهجوم عنيف، والثانى زجّه الأطفال والنسوة وما يمكن نقله من الأموال فى المعركة وخلق حالة من الاصرار لدى القبائل ودفعها إلى القتال حتّى النهاية.

وقد علّق الشاعر دُرَيد بن الصمّة بمرارة قائلاً: إنّ المنهزم لا يردّه شىء؛ وانتقد مالكاً بن عوف لذلك.

كان على الجيش الإسلامى الزاحف أن يسلك المنعطفات الجبلية فى منطقة حنين؛ وعندما بدأت الكتائب الإسلاميّة فى غبش الفجر الانسياب فى بطن الوادى العميق، فوجئت بوابلٍ من السهام وهى تنبعث من قلب الظلمات، وسادت الفوضى الكتيبة التى يقودها خالد بن الوليد فارتدّت إلى الوراء فى انسحاب فوضوىّ جرف معه الكتلة الرئيسية من الجيش الإسلامىّ، وتحوّل الانسحاب إلى هزيمة، ولم يُعِر المنهزمون أُذناً إلى صيحات النبىّ وهى تدعوهم إلى الثبات والمقاومة، وبهذا سجّلوا موقفاً أسوأ بكثير ممّا حصل فى معركة أُحد.

لم يَثْبُت مع النبىّ صلّى الله عليه وآله إلّا ثلّة مؤمنة، وقد تضاربت الروايات فيمن ثبت.. ولكنّها أجمعت على ثلاثة فى طليعتهم علىّ بن أبى طالب والعبّاس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن الذى هوى شهيداً فى أرض المعركة.

وأمر النبىّ صلّى الله عليه وآله عمّه العباس أن يطلق هتافاته الجَهوريّة ليتذكر المسلمون بيعةً فى ظلال الشجرة.

ودوّت فى الوادى صيحات العباس:

يا أهلَ بيعة الرضوان!.. يا أصحاب سورة البقرة.. يا أهل بيعة الشجرة.. إلى أين تفرّون؟!

وكان ذو الفقار يسطع فى غمرة الغبار كصاعقة مدّمرة، وقد سجّل القرآن الكريم تلك اللحظات الحساسة من تاريخ الإسلام فى قوله تعالى: ويومَ حُنينٍ إذ أعجَبَتْكم كَثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقَت عليكُم الأرضُ بما رَحُبَت ثمّ ولَّيتُم مُدبِرين، ثمّ أنزلَ اللهُ سَكينتَه على رسولهِ وعلى المؤمنينَ وأنزل جُنوداً لم تَرَوها.

إن قلب المؤمن أقوى من الجبل.. وسيذكر التاريخ الإسلامى بإجلال تلك اللحظات المصيريّة؛ فيوم هبّت العاصفة الوثنيّة صفراء مدمّرة، لم يثبت سوى محمّد وعلىّ ورجال صدقوا.. وأنزل الله جنوده.. وتحوّلت الهزيمة إلى نصر، وشيئاً فشيئاً عاد المنهزمون إلى الوادى الأيمن، وكانت راية الإسلام تخفق فى قبضة علىّ؛ واقتحم النبىّ عن بغلته وراح يباشر القتال ببسالة أدهشت المسلمين أنفسهم، واندفع علىّ إلى حامل الراية الوثنيّة فقضى عليه، وسقطت راية الشرك، وكان لهذا الموقف البطولىّ أثره فى ارتفاع معنويّات المسلمين.

وما أن أشرقت الشمس حتّى كانت أرض الوادى تهتزّ لضرواة المعركة، وعندما شاهد النبىّ صلّى الله عليه وآله أنّ كفّة القتال تميل لصالح الجيش الإسلامىّ هتف مُعلناً بدء الهجوم المعاكس:

الآن حَمِى الوَطيس، شُدّوا عليهم!

واندفع المسلمون فى هجوم مدمّر، وراحوا يمزّقون الفُلول الوثنية التى فضّلت الفرار والنجاة بأى ثمن.

لقد سقطت راية الشرك إلى الأبد، فيما ظلّت راية الإسلام تخفق فى قبضة بطل الإسلام علىّ بن أبى طالب عليه السّلام.

انظر كيف يتألّق اسم علىّ فى منعطفات التاريخ الإسلامى.. فى اللحظات المصيرية.. فى «بدر» و «أُحد» والأحزاب وفى يوم حُنين؛ ثمّ يختفى فجأة عندما يصبح الحديث عن الغنائم والأسلاب، والأطماع الرخيصة..

لقد حصل أبو سفيان وصفوان ومعاوية ويزيد على ثروات طائلة لم يكونوا ليحلموا بها.. وعاد علىّ ولا شىء فى يديه سوى البيرق الإسلامىّ، و «السَكينة» التى أنزلها الله على رسوله تملأ قلبه.

هارون

فی السنة التاسعة من الهجرة المباركة وصلت إلی المدینة أنباء مثیرة حول حشود عسكریّة هائلة فی تَبوك؛ واستعدّ النبیّ صلّی الله علیه وآله لمواجهة أكبر امبراطوریّة فی العالم آنذاك. كان الفصل صیفاً شدید الحرارة، والعام عام جَدب مما جعل هذه المهمّة العسكریة شاقّة، وأعلن النبیّ صلّی الله علیه وآله حالة النفیر العام، ولأول مرّة استخدم سیّدنا محمّد صلّی الله علیه وآله أُسلوب الحرب الشاملة بالتحاق جمیع القادرین علی حمل السلاح.

وسجل المجتمع الإسلامی حالة رائعة من التضامن مقابل تیار المنافقین الذین بذلوا جهوداً قذرة فی تثبیط الهمم.

وبالرغم من قسوة الظروف فقد حشد النبیّ صلّی الله علیه وآله ثلاثین الف مقاتل، وغادر المدینة واستخلف علیها وصیّه علیّ بن أبی طالب وهی المرّة الأولی التی لم یشترك فیها علیّ فی حروب الإسلام.

كان المنافقون ینتهزون هذه الفرصة ولكنّهم أُصیبوا بخیبة أمل لدی اكتشافهم أن خلیفة النبیّ هو ابن عمه علیّ.

وجاء وفد من المنافقین وعرضوا علی النبیّ صلّی الله علیه وآله أن یصلّی فی مسجدٍ لهم بَنَوه فی قریة «قبا» فی ضواحی المدینة؛ ولم یذهب النبیّ صلّی الله علیه وآله إلی قبا؛ وأرجأ ذلك لحین عودته من تبوك.

وقف الأطفال والنساء والشیوخ فوق سطوح المنازل یودّعون الجیش الإسلامی والشفاه تتمتم بالدعاء أن ینصر الله رسوله والذین آمنوا.

واستیقظت فی نفوس المنافقین كوامن الخیانة والغدر، ووجدوا فی علیّ عقبة كَأْداء فی الوصول إلی أهدافهم الرخیصة.

أطلق المنافقون الشائعات حول استخلاف النبیّ صلّی الله علیه وآله لعلیّ بن أبی طالب قائلین: إنّما خلّفه استثقالاً له. ولم یجد علیّ وهو الذی لم یفارق النبیّ صلّی الله علیه وآله طیلة حیاته إلّا أن یأخذ سلاحه ویلتحق بالنبیّ صلّی الله علیه وآله وكان النبیّ قد عسكر فی «الجرف» قریباً من المدینة عندما وصل علیّ وقال مخاطباً رسول الله:

یا نبیّ الله، زعم المنافقون بأنّك إنّما خلّفتَنی استثقالاً لی!

أجاب النبیّ مستنكراً:

كذبوا.. إنّما خلّفتُك لما ورائی.. إنّ المدینة لا تصلح إلّا بی أو بك.. فأنت خلیفتی فی أهل بیتی ودار هجرتی وقومی..

وأردف قائلاً كلمته الخالدة:

أما ترضی یا علیّ أن تكون مِنّی بمنزلة هارون من موسی، ولكن لا نبیّ بعدی؟

وعاد «هارون» إلی المدینة وهو یحمل أوسمة المجد؛ وشعر المنافقون بالاحباط وهم یرون علیّاً یعود إلی المدینة، فانطلقوا إلی مسجدهم خارج المدینة.

مشاهد ونبوءات

المشهد الأول: حلّ ذو الحجّة الحرام من السنة التاسعة للهجرة، وهبط جبریل یحمل آیات «البراءة»، إیذاناً سماویاً بانتهاء الوثنیّة فی شبه الجزیرة العربیة، استدعی النبیّ صلّی الله علیه وآله أبا بكر وسلّمه البلاغ السماوی، ومضی أبو بكر أمیراً علی الحجّ ذلك العام؛ حتّی إذا وصل «ذی الحَلیفة».. هبط الوحی فی المدینة المنوّرة، یأمر النبیَّ ألّا یبلّغ تلك الآیات إلّا نبیٌّ أو وصیّ نبیّ. واستدعی رسول الله علیاً وأمره أن یركب «القُصوی» وأن یدرك أبا بكر ویأخذها منه.

وعاد أبو بكر إلی المدینة وهو یشعر بالقلق، وخاطب النبیَّ بلهجة یشوبها خوف:

یا رسول الله، أنزَلَ فیّ شیء؟!

أجاب النبیّ صلّی الله علیه وآله مُطمْئِناً:

لا.. ولكن قال لی جبریل: لا یُؤدّیها عنكَ إلّا أنت أو رجلٌ منك.

علیٌّ یطوی المسافات یقود قوافل الحجّ الأكبر. وشهد البیت العتیق للمرّة الثالثة نداءات التوحید؛ وكان الوثنیّون یبحثون عن اللات

والعُزّی وهُبَل وعن عشرات الآلهة التی دکّها الزلزال الإسلامی.

وها هو علیّ بن أبی طالب ابن عمّ محمّد وزوج ابنته فاطمة یُعلِن موت الوثنیة وزوالها إلی الأبد.

تألّقت شمس العاشر من ذی الحجة الحرام، ووقف علیّ یتلو بلاغ السماء:

إنّما المشرکون نَجَسٌ فلا یَقربَوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهم هذا.

ودوّت نداءاته فی فضاء مکّة وهو یهتف عالیاً:

«لا یحجّن بعد هذا العام مشرکٌ، ولا یطوفنّ فی البیت عریان، ولا تدخل الجنّةَ إلّا نفس مسلمة؛ ومَن کان بینه وبین رسول الله عهد فأجلُه إلی مُدّته..».

المهشد الثانی: دخل الناس فی دین الله أفواجاً، ما خلا بعض القبائل هنا وهناک، وفی شهر رمضان المبارک من السنة العاشرة للهجرة بعث سیّدنا محمّد صلّی الله علیه وآله علیاً علی رأس ثلاثمئة من المقاتلین إلی قبیلة مذحج فی الیمن، (وکانت مشاهد التودیع مؤثّرة، فقد عمّم سیّدنا محمّد صلّی الله علیه وآله علیاً بنفسه وسلّمه اللواء، وقال له:

أُدعُهم إلی قول لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فإن أجابوک فَأْمُرْهم بالصلاة ولا تَبْغِ منهم غیر ذلک.

وأردف قائلًا:

واللهِ لأن یهدی الله بک رجلًا واحداً خیرٌ لک مما طلعتْ علیه الشمس.

وحفظ علیّ وصیّة النبیّ، فعاش حیاته کلها یجاهد من أجل الإیمان.

قال علیّ وقد هّم فی مهمّته:

یا رسول الله، تبعثنی إلی قوم وأنا حدیث السنّ لا أُبصر القضاء.

تقدّم النبیّ صلّی الله علیه وآله ووضع یده علی صدر علیّ ونظر إلی السماء بخشوع وقال:

اللهمّ ثبّت لسانه واهْدِ قلبه.

وأردف وهو ینظر إلی فتاه وصِهره:

إذا جاءک الخصمان فلا تقضِ بینهما حتّی تسمع من الآخر، فإنّک إذا فعلت تبیّن لک القضاء.

وانطلقت خیول الإسلام إلی الیمن، وکان همّ علیّ الأول أن تدخل القبائل القاطنة هناک فی دین الله؛ وقد نجح فی مهمّته، ثم غادر الیمن بعد أن ترک فیها مُعاذ بن جبل یعلّم أهلها أحکام الشریعة؛ أما علیّ فقد توجه من هناک إلی مکة، فقد أطلّ موسم الحجّ، وها هو رسول الله ومعه عشرات الألوف من المسلمین یقطعون الصحراء وهم یلبّون نداء أبیهم إبراهیم، وقد سمّاهم المسلمین من قَبْل؛ وأسرع علیّ یحثّ خُطاه وفی قلبه شوق للقاء نبی الله صلّی الله علیه وآله، والتقی الأخوان علی مشارف مکّة.

وزفّ علیّ بشائر النصر إلی رسول الله.

قال النبیّ وقد اشرقت الفرحة فی وجهه:

بِمَ أهلَلْت یا علیّ؟

قال علیّ:

یا رسول الله، إنّک لم تکتب إلیّ بإهلالک ولا عرفتُه، فعقدت نیّتی بنیّتک، وقلتُ: اللهمّ إهلالاً کإهلال نبیّک، وقد سُقتُ معی من البُدن أربعاً وثلاثین بدنة.

وعندها قال النبیّ صلّی الله علیه وآله:

الله أکبر، وأنا سقتُ ستاً وستین.. وأنت شریکی فی حجّی ومناسکی وهَدیْی، فأقِم علی إحرامک وعُد إلی جیشک فعجّل بهم حتّی نجتمع بمکّة.

المشهد الثالث: وقف رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم النحر من حِجّة الوداع خطيباً:

«أمّا بعد، أيّها الناس اسمعوا منى ما أُبيّن لكم فإنّى لا أدرى لَعَلّىّ لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا، إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربّكم كحُرمة يومكم هذا فى شهركم وبلدكم هذا..».

«أيّها الناس إنّما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لأمرئٍ مالُ أخيه إلّا عن طيب نفسه، فلا ترجعوا كفّاراً بعدى يضرب بعضكم أعناق بعض، فإنّى قد تركتُ فيكم ما إن أخذتُم به لن تضلّوا بعدى أبداً: كتاب الله وعِترتى أهل بيتى..».

انطوى موسم الحجّ، وغادر سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وآله مكّة ومعه مئة ألف أو يزيدون؛ التاريخ يشير إلى يوم الثامن عشر من ذى الحجّة الحرام من السنة العاشرة للهجرة.

قوافل الحجيج تهوى فى بطون الأودية؛ الشمس فى كبد السماء وقد بدت وكأنها تتشظّى لهباً، القوافل تصل مكاناً قريباً من الجُحفة، حيث مفترق الطرق.

وغمرت النبيَّ صلّى الله عليه وآله وهو على ناقته «القصوى» خشوع الرسالات، لقد هبط جبريل يحمل بلاغ السماء، وتوقف النبىّ صلّى الله عليه وآله وهو يتشرّب إنذاراً سماوياً:

يا أيّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزِل إليكَ مِن ربِّك وإن لم تفعلْ فما بَلَّغْتَ رسالتَه واللهُ يَعصِمُك مِن الناس.

وتوقّفت عشرات الألوف وهى تتساءل عن السرّ فى توقّف النبىّ فى هذه البقعة الملتهبة من دنيا الله.

وانبرى بعض الصحابة يصنعون للنبىّ مرتفعاً، فلديه كلمات تامّات يريد إبلاغها لعشرات الآلاف من الصحابة.. والأجيال القادمة.. والتاريخ:

كلمات الحمد والثناء لله تنساب من بين شِفاه آخر الأنبياء، قال النبىّ وعشرات الأُلوف تتطلع إليه:

ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

وجاء الجواب من عشرات الحناجر:

بلى يا رسول الله.

وأخذ النبىّ بيد علىّ ورفعها عالياً:

مَن كنتُ مولاه فهذا علىٌّ مولاه..

ورفع آخرُ الأنبياء يدَيه إلى السماء:

اللهمّ والِ مَن والاه.. وعادِ مَن عاداه.. وانصُر مَن نصره.. واخذُل مَن خذله.

وهبط جبريل يبشر محمّداً صلّى الله عليه وآله أنه قد أدّى رسالته وقد آن له أن يستريح؛ لقد اكتمل الدِّين وتمّت النعمة وقِيل الحمد لله رب العالمين.

تصفّد الجبين الأزهر عرقاً؛ تألقت حبّات العرق كقطرات الندى وقد انطبعت كلمات السماء فوق شغاف قلبٍ وَسِع الدنيا والتاريخ:

اليومَ أكملتُ لَكُم دِينَكم وأتمَمتُ علَيكُم نِعمتى ورَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً.

ارهاصات الرحيل

عاد رسول الله إلى المدينة ينوء بثقل السنين، تؤرّقه هواجس المصير؛ جبريل يعرض عليه القرآن مرّتين، إنّه يقترب من النهاية.. نهاية كلّ الحيوات، وقد ظهرت فى الأفق غيوم وغيوم.

انتصف الليل وبدت النجوم فى صفحة السماء قلوباً تنبض بوهن، استدعى النبىّ صلّى الله عليه وآله مولاه «أبا مويهبة».

قال النبىّ بشىء من الحزن:

إنّى قد أُمرتُ أن أستغفر لأهل البقيع.. فاخرُج معى.

لبّيك يا رسول الله.

الصمت يهيمن على المكان ما خلا خطوات واهنة فى طريقها إلى أُناس عاشوا ثم ماتوا؛ وقف آخر الأنبياء يُحيّى أولئك الذين رحلوا بعيداً بالرغم من تلك الأشبار القليلة التى تفصلهم عمّا يجرى فوق الأرض:

السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيَهْنَ لكم ما أصبحتُم فيه مما أصبح الناس فيه، لو تعلمون ما نجّاكم الله منه..

أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أُخراها أُولاها، والآخرة شرّ من الأولى.

التفت رسول الله إلى مولاه:

يا أبا مُوَيهبة، إنّى قد أُوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخُلد فيها ثمّ الجنّة؛ وخُيّرت بين ذلك ولقاء ربّى والجنّة، فاخترتُ لقاء ربّى والجنّة.

قال أبو مويهبة بحزن:

بأبى أنت وأمّى، فخُذ مفاتيح خزائن الدنيا والخُلد فيها ثمّ الجنّة.

أجاب النبىّ وقد هزّه لقاء الحبيب:

لا واللهِ يا أبا مويهبة، لقد اخترتُ لِقاء ربّى..

وسمع أبو مويهبة تمتمات الاستغفار..ها هو النبىّ الأمّىّ يتذكّر أصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

الأيام تمرّ حزينة والرسول يخطو إلى النهاية.. وقد أزفت ساعة الرحيل.

لزم النبىّ فراش المرض، جسده يغلى من وقع الحمّى.

المسلمون رجالاً ـ ونساءً يعودون آخر الأنبياء.. القلوب تذوب حزناً، وجاءت أم بُشر تعوده؛ قال النبىّ وقد ومضت فى ذهنه حوادث خيبر:

يا أم بشر.. وجدتُ انقطاع أبهرى مع الأكلة التى أكلتُ مع ابنك بخيبر.

الخميس (۲۴ صفر ۱۱ ه)

اليوم هو يوم الخميس، ارتدت الاشياء ثوب الحزن والقلق؛ أو هكذا خُيّل للمؤمنين، فالقلب الكبير يخفق بشدّة، تتسارع دقّاته تحت لهيب الحمّى.. والنبىّ يقطع الخطوات الأخيرة من حياته فى كوكب الحوادث؛ عيناه مشدودتان إلى الأفق البعيد.. الأفق المغمور بالطمأنينة والسلام، والقلب يخفق لآخر الأمم وقد ذرّ الشيطان قرنَيه.

الحجرة الطينيّة المتواضعة تكتظّ برجال رافقوا النبىّ وها هم يجتمعون حوله، وآلاف الأفكار تصطرع فى الرؤوس، وقد «أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم».

نظر النبىّ إلى اصحابه.. دمعت عيناه..ها هى لحظة الوداع قادمة من بعيد، إنّها تقترب، وها هى الفتن مقبلة.

تمتم النبىّ بصوت واهن:

ائتونى بصحيفةٍ ودواة لأكتُبَ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً.

ونهض صحابىّ.. فاعترضه رجل فيه غلظة:

ارجع.. لقد غلب رسولَ الله الوجع.. إنّه يهجر.. حَسْبُنا كتاب الله.

الجسد يغلى تحت وطأه الحمّى.. غامت المرئيات وولج النبىّ عالماً آخر، أغضبته كلمات الرجل الفظّ.

ولمّا أفاق وجد أصحابه يتنازعون، قال رجل:

ألا نأتى لك بدواةٍ يا رسول الله!

أجاب النبيّ بحزن:

أَبَعْدَ الذى قلتم!

أدار آخر الأنبياء وجهه إلى الحائط.. ونهض الرجال وكان ابن عمّ له يبكى.. يبكى بمرارة؛ لقد أضاع المسلمون مجدهم.. ولسوف يبكون.. يذرفون الدموع غِزاراً قبل أن يعثروا عليه.

الجمعة (۲۵ صفر ۱۱ ه)

جاءت فاطمة.. فتاة تحمل ملامح مريم.. النبع الدافق رحمة وحناناً.. جاءت «أم أبيها».. تعود أباها.. أراد آخر الأنبياء أن ينهض إجلالاً للمرأة المِثال.. لسيّدة كلّ امرأة فى التاريخ.. ولكنّ الجسد الواهن لم يستجب للارادة.. هتف وقد شاعت الفرحة فى وجهه:

مرحباً يا بنتى..

أخذ النبيّ بيدها وأجلسها إلى يمينه؛ همس فى أُذنها بكلمات.. شهقت الفتاة بعبرات واخضلّت الأجفان بالدمع.. كسماء تمطر بحزن.. وهمس الأب بكلمات.. انقشعت الغيوم.. وأشرقت شمس الأمل تبعث النور والدفء.. أشرقت ابتسامة فى الوجه المضىء.. تعجّبت عائشة. حفصة.. أم سلمة.. وكلّ النسوة.. نهضت فاطمة.. لحقتها عائشة:

لقد خصّك بسرّ.. تضحكين تارة وتبكين أُخرى!!

أخبرينى بما قال لكِ.

قالت فاطمة وما تزال قطرات الدمع عالقةً بأهدابها:

ما كنتُ لأُفشىَ سرَّ رسول الله.

السبت (۲۶ صفر ۱۱ ه)

ترك أسامة جيشه فى «الجُرُف» ودخل منزل النبيّ تموج فى نفسه الهواجس، فهناك من الصحابة من يتذمّر من قيادته لحداثة سنّة، وهناك من يتعلّل بحالة النبيّ.. قال أُسامة وهو مطرق الرأس:

بأبى أنت وأُمّى.. أتأذن أن أمكُث أيّاماً حتى يشفيك الله؟

لا يا أُسامة.. أنفذْ بجيشك حتّى توطّئ خيلك أرض البلقاء والداروم حيثُ قُتل أبوك.

ورأى النبيّ صاحبَيه.

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله بألم:

ألم آمركم بإنفاذ جيش أُسامة؟!

أجاب الأول: كنتُ فى «الجرف» وقد جئت أُجدّد بك العهد.

وقال الثانى: أما أنا فلم أخرج.. لا أريد أن أسأل عنك الأعراب فى الصحراء!

تضاعفت آلام محمّد صلّى الله عليه وآله.. غلت العروق بسبب الحمى والغضب، تمتم بحزن: أنفِذوا جيش أسامة.. أنفِذوا جيش أُسامة أنفِذوا...

الاحد (۲۷ صفر ۱۱ ه)

خفّت الحمّى.. وشعر آخر الأنبياء بشىء من النشاط يسرى فى جسده الواهن؛ تاقت روحه العظيمة إلى مسجدٍ أُسس بُنيانه على التقوى؛ كان الوقت ضحى، طلب النبيّ من ابنَى عمّه أن يساعداه؛ وبالرغم من العصابة التى شدّها حول رأسه إلّا أنّ الحمى قد خفّت قليلاً..

وها هو النبيّ يمشى الهُوَيْنا بين عليّ والفضل، وشاعت الفرحة بين أصحابه...

اتّجه آخر رُسُل السماء إلى المنبر فارتقاه، وكان يتساند على يد الفضل حتّى استوى، قال النبيّ لابن عمه:

نادِ فى الناس.

ولبّى المسلمون النداء.. ورمق النبيّ أصحابه بنظرات تشّع رحمة وقال:

أحمَدُ إليكمُ الله.. أيّها الناس. مَن كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهرى فَلْيَقْتَدْ منه، ومن كنتُ أخذتُ له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه..

ولا ـ يقل رجل إنّى أخاف الشحناء من رسول الله.. ألا وإنّ الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى، ألا وإنّ أَحَبّكم إلىّ مَن أخذ منّى حقاً إن كان له.. أو حلّلنى فأتيتُ الله وأنا طيّب النفس...

الاثنين (۲۸ صفر ۱۱ ه)

دهمت الحمّى الجسد الواهن، والروح العظيمة توشك على الرحيل؛ القلب الكبير يخفق بعنف.. وأخفقت مياه الآبار فى إطفاء النار المشتعلة..

ارتفع صوت بلال يدعو إلى الصلاة ... وخفّ بلال إلى بيت الرجل الذى علّمه كيف يحيا ... وقف إزاء الباب وهتف بشوق:

الصلاةَ يرحمكم الله..

قال النبيّ وهو ينوء تحت وطأة الحمّى:

يُصلّى بالناس بعضُهم فإنّى مشغول بنفسى..

هتفت عائشة: مُروا أبا بكر!

وهتفت حفصة: مُروا عمر!

وتألّم النبيّ، فما يزال أصحابه فى المدينة وقد أُمروا بالجهاد.. ما يزال جيش أُسامة فى المدينة وقد أمر أن يذهب إلى تخوم «البلقاء».

ونهض رسول الله.. وساعده علىّ والفضل ... وكانت قدماه تخطّان فى الأرض.. ووجد صاحبه فى الغار فى المحراب، فنحّاه..

وعاد النبيّ إلى منزله ينوء بحمّى الرحيل...

وضع النبيّ رأسه فى حِجر أخيه ... وتوهّجت الذكريات البعيدة، تذكّر علىّ مشاهد مضيئة ... انبعثت من بين غبار الأيام وتراب السنين ...تذكّر يوم كان صبيّاً فى حجر محمّد ... تذكّر رحلاته إلى جبل حِراء ويوم هبط جبريل يحمل آخر الرسالات ... وتذكّر اللحظات التى ودّعه فيها يوم هاجر من مكّة ... تذكّر سنوات الجهاد والعناء ... ويوم تحطّمت الأصنام وعَنَت الوجوه للواحد القهّار... ها هو محمّد صلّى الله عليه وآله يذوى ... يخبو بريق عينيه ... يشعّ اسمه فى القلوب ... كلّ القلوب ... نهضت فاطمة احتراماً للرجلَين أبيها وبعلها.. احتراماً للحظات الوداع ... بعد رحلة طويلة ناهزت الثلاثين سنة، ونهضت النسوة احتراماً لفاطمة ... لم يبق فى الحجرة الطينية سوى محمّد وعلىّ وكلمات الوداع ... جلست فاطمة عند عتبة الباب.. فى استسلام كامل للقضاء الإلهىّ، وانبعثت كلمات محمّد الأخيرة ... السماء تخيّره فاختار:

بل الرفيق الأعلى...

وعانق علىٌّ أخاه وسيّده ... وانطلقت الروح من أهاب الجسد تطوى المسافات...

ودوّى هتاف حزين:

وامُحمّداه!

وانطفأت الشمس وحلّ زمن الزمهرير.

فاطمة تنوء بنفسها وقد أسندت رأسها إلى صدرٍ لم يعد النسيم يزوره.

كانت تُصغى إلى صمت الأنبياء ... وللصمت حديث تسمعه القلوب وتُصغى إليه العقول.. العينان اللتان كنتا نافذتَى نور قد أسدلتا جَفْنَيهما، واليدان اللتان كانتا مهداً هما الآن مُسبَلتان ... والروح التى كانت تصنع التاريخ والإنسان قد رحلت بعيداً.. غادرت هذا الكوكب الزاخر بالوَيلات.

لقد حلّت لحظة الفراق؛ وتخفّف الإنسان السماوىّ من ثوبه الأرضىّ ليرحل بعيداً ... إلى عوالم حافلة بالنور والحبّ والسلام.

اصلب من الأيام

فَصَبَرْتُ وفى العَين قَذى وفى الحَلْق شَجى ... أرى تُراثى نَهْباً..

العاصفة

انطفأ السراجُ فالدنيا ظلام.. وخمد المَوقِد فالحياة فى جزيرة العرب زمهرير. ورحل السلام.. فذرّ الشيطان قرنَيه يعربد.

أيّها الصامت، صمتُك أبلغ من كل أبجديّات الدنيا.. وسكوتك المدوّى صرخة حقّ فى عالم الأباطيل. وقد زُلزلت الأرض زِلزالها، انهار عمود خيمة كانت تعصف بها الريح.. وتمزّق «الكساء» اليمانىّ وكان يُدثّر نبيّاً هو آخر الأنبياء فى التاريخ.. ورجلاً يشبه «هارون» فى كلّ شىء إلّا النبوّة.. وامرأة هى سيّدة بنات حوّاء.. وسبطَين هما آخر الأسباط فى التاريخ.

آهٍ منك يا يومَ الاثنين !...

جثا علىّ أمام جسدٍ كانت روحه العظيمة تضىء الجزيرة، وبقايا نور فى الجبين البارد تشبه شمساً هَوَت فى المغيب. هيمن صمت ملائكىّ فى المكان فيما العالم خلف الحُجُرات يموج بالفتن.

ظهرت غيمة فى الأُفق حجبت ضوء الشمس ... وكَمَنْ يبحث عن ظِلّه فى يوم غائم كان الناس ينظرون هنا وهناك ... هل غادر الحبيب الديار؟!

واجتمعت طائفة من الأنصار فى سقيفةٍ لهم ... فهناك من يريد الاستيلاء على «سلطان محمّد» (قُريش) لا تريد علياً.. ذلك الفتى الذى قهر ب «ذى الفقار» جبروتها.. لا تريد لبنى هاشم أن يحوزوا النبوّة والإمامة.. والوحىَ والخلافة.. والسماء والأرض...

هل أدرك الأنصار ما يدور فى الخفاء من همسٍ حول إقصاء علىّ؟ هل طمعوا ب «السلطان»؟ هل خافوا أن يضيع نصيبهم من «الأمر».

يا يوم الاثنين

أُغمض النبىّ عينيه ... وعاد جبريل إلى السماء.. واستيقظت فى النفوس غرائز كانت مُكبّلة أو نائمة..

دخل عمر حُجرة النبىّ.. كشف الملاءة عن وجهٍ أضاء الدنيا، قال بدهشة متصنّعة:

ما أشدَ غشى رسول الله!

أجاب المغيرة مصعوقاً من موقف عمر:

مات واللهِ رسول الله.

ردّ عمر بلهجة فيها وعيد:

كذبتَ ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه ... كما ذهب موسى بن عمران.

وظل المغيرة ينظر إلى عمر بدهشة.

خرج عمر وقد جحظت عيناه من الغضب.. شهر سيفَه مهدّداً وراح يهتف:

إنّ رجالاً ـ من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله قد مات ... لا ـ واللهِ ... ما مات.. ولكنْ ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران ثمّ

رجع بعد أربعين ليل...

والله ليرجعنّ رسول الله.. فليقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم...

تحلّق الناس حول رجل يبرق ويرعد ويُهدّد كلّ من يقول بموت محمّد صلّى الله عليه وآله.. ما أعجب ما يقوله عمر.. محمّد لم يمت.. ذهب إلى ربّه.. بعد ليال سوف يعود!

لقد ضربت الصاعقة الأذهان.. شلّتها عن التفكير فى كلّ شىء.. ومن بعيد لاح «أبو بكر».. وصل توّاً من خارج المدينة.. من منزلٍ له فى «السنح».

هتف من بعيد:

على رِسْلك أيها الحالف!

والتفت إلى الأُمة المذهولة قائلًا:

أيّها الناس! مَن كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت وما محمّدٌ إلّا رسولٌ قد خَلَت مِن قَبْله الرُّسُل...

فجأة خمد البركان ... وتظاهر «عمر» باستسلام عجيب، وقف إلى جانب أخيه ... وانضمّ إليهما رجل ثالث هو «ابن الجرّاح»، تبادل الثلاثة نظرات ... هى لغة كاملة.. ربّما كانوا يفكّرون ليومَين أو ثلاثة من المستقبل ... أو ربّما للتاريخ بأسره.

إنّ كلّ التحوّلات الاجتماعية الكبرى إنّما تولد فى الضمائر الإنسانيّة قبل أن تشق طريقها إلى الواقع ... إنّها موجودة فى الأعماق حتّى يأتى من يستخرجها إلى أرض الوقائع، وكان فى ضمائر جلّة المهاجرين وقريش قاطبة عزمٌ فى ألّا تجتمع النبوّة والخلافة فى بنى هاشم، وقد قرأ رجال ما يجول من الخواطر، فأخرجوا ما استتر فى الضمائر..

علامات استفهام

الشمس ما تزال وراء غيوم «نيسان ...» جثمان آخر الأنبياء ما يزال مسجّىً ... علىّ ذاهل بالفاجعة، شعر بغُربة شديدة، لقد رحل الحبيب ... ستموت فاطمة ... ستذوى مثل شمعة تحترق فى ليل الجزيرة ... وسيبقى وحيداً...

أسفر الجَدَل فى «السقيفة» عن انتخاب «سعد بن عُبادة» خليفة للمسلمين!! الأطماع، والقلق، والخوف هى.. وراء اجتماع «الأنصار» فى سقيفة بنى ساعدة.. هناك من يحلم بالمجد، وهناك من ينظر إلى الأُفق البعيد فيرى «قريشاً» تتحفّز للانتقام من «أهل يثرب»، تريد أن تأخذ ثاراتها من «بدر» و «أُحد» و «الأحزاب»!

الدقائق تمرّ بطيئة كأنّ التاريخ أُصيب بالذهول؛ الأوس يكظمون غيظاً إزاء «سعد الخزرجى».. ولكن ماذا بوسع «الأوس» أن يفعلوا؟ لا مفرّ من ذلك، ثمّ إنّه سيكون أهون من «قريش»!.. قريش التى لم تنس ثاراتها بعد. وفى لحظات تاريخية غادر رجلان من الأوس؛ والأنصار على وشك البيعة.. انطلقا بأقصى سرعة إلى «أبى بكر وعمر وابن الجرّاح» وفى قلبَيهما عزم على حرمان «سعد» من المجد!!

ولكن لماذا هولاء الثلاثة بالذات!! لماذا عمر؟ لماذا لم يذهبا إلى علىّ أو عمّه العباس؟!

السماء لم تزل غائمة، وانطلق الثلاثة إلى «السقيفة»، سوف يُفاجأ الرجل المريض. جاءت قريش تحتجّ بأنّها شجرة محمّد صلّى الله عليه وآله وقد رمت بعيداً ثمرتها اليانعة!!

اذا الشمس كورت

تُرى ماذا كان يفعل علىّ فى تلك اللحظات المثيرة «... الأنصار» و «المهاجرون» فى صخب وجدل وشجار حول «سلطان محمّد...» لنترك «السقيفة» فى صخبها ولنَعُد إلى حجرة آخر الأنبياء..

الصمت ما يزال يهيمن.. وبالرغم من غياب الشمس.. بالرغم من غيوم «نيسان» فقد بدت الحجرة مضيئة ... مضيئة بنورٍ شفّاف لعلّه تألّقات لكائناتٍ سماويّة وفدت لتحمل «الروح العظيم».

محمّد صلّى الله عليه وآله يهيمن على الزمن حيّاً وميتاً.. محمّد ساكت.. وما أعظم صمت الأنبياء!

ليت الذين يتشاجرون فى السقيفة يصمتون ليُصغوا إلى صمت محمّد.. أو يحترمون صمته.

ما هذه الضجّة تقترب من المسجد؟! وكان هناك رجل طويل بيده عسيب نخل يحوش الناس؛ رفع علىّ عينيه وكان العبّاس قد ذهب يستطلع الضوضاء.. قال عم الرسول:

لقد بويع أبو بكر!!

وارتفعت علامات استفهام كبرى فوق رؤوس بعض المهاجرين والأنصار...

سأل علىٌّ عمّه:

بِمَ احتجّوا على الأنصار؟

قالوا إنّا شجرة النبىّ!

علّق الإمام بحزن:

احتجّوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة.

سوف تبقى السقيفة بداية لسلسلة من المآسى والنكبات فى تاريخ الإسلام.

ومن يُرِدْ أن يبحث عن جذور كارثة «صِفّين» أو مأساة «كربلاء» فانه سوف يجدها فى تلك الأشبار من الأرض.. عندما ظلّ علىٌّ وحيداً.

تُرى ماذا فعل علىّ وهو يشهد انعطافة التاريخ فى غير الوجهة التى أرادها سيّد التاريخ؟

تلقّى علىٌّ أنباء السقيفة بصمت.. ربّما شاهد بعضُ الصحابة فى عينيه حزناً عميقاً.. أسفاً..

استأنف علىّ عمله فى تجهيز جثمان سيّد الخليقة..

الثلاثاء (۲۹ صفر ۱۱ ه)

وقف العبّاس عم النبىّ وولداه، وقفوا صامتين يتأمّلون عليّاً؛ التفت علىّ إلى الفضل:

ناوِلنى الماء.

أُسامة يصبّ المياه فوق الجسد الطاهر، وعلىّ يغسله.

شهق بعَبرته وهو يتمتم:

بأبى أنت وأُمّى، ما أطيبكَ حيّاً وميتاً!

فاحت فى فضاء الحجرة رائحة طيبة.. وتوهجت ذكريات قديمة.. وتذكّر أُسامة حديثاً للحبيب الراحل:

«أيّها الناس، إنّما أنا بشر يُوشَك أن أُدعى فأُجيب، وإنّى تاركٌ فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله، فيه الهُدى والنور.. وأهل بيتى. أُذكّركم الله فى أهل بيتى.. أُذكّركم الله فى أهل بيتى.. أُذكّركم الله فى أهل بيتى.

الإنسان السماوى يتأهّب للرحيل، يرتدى ثياباً بيضاء بلون رسالته، بلون حمائم السلام، بلون الرباب، بلون النور الذى سطع فى جبل حراء.

الصلاة

تقدّم عليّ للصلاة على الجثمان الطاهر.. تقدّم وحده والمسلمون فى المسجد يخوضون جدلاً فى من يؤمّهم فى الصلاة.

وقال عليّ عليه السّلام:

إنّ رسول الله إمامُنا حيّاً وميتاً ... فليدخل عليه فوجٌ بعد فوج فيصلّون عليه بغير إمام وينصرفون...

وأردف:

وإنّ الله لم يقبض نبيّاً فى مكان إلاّ وقد ارتضاه لرمسه فيه؛ وإنّى لَدافنُه فى حُجرته التى قُبِض فيها.

الشمس تسير حزينة وراء الغيوم.. تتجّه إلى المغيب، والمسلمون يودّعون آخر الأنبياء فى صلاة طويلة.

الشمس تقترب من المغيب؛ وأنفذ العباس إلى أبى عبيدة بن الجرّاح وكان يحفر لاهل مكّة ويضرّح، وأنفذ إلى زيد بن سهل وكان يحفر لأهل المدينة؛ وهكذا اشترك أنصارىّ ومُهاجر فى الحفر؛ ودسّ عليّ يديه تحت الجثمان العظيم.. ونادى الأنصار من وراء الحجرات:

يا عليّ، نُذكِّرك الله وحقّنا اليوم مِن رسول الله أن يذهب.. أدخِل منا رجلاً يكون لنا به حظّ من مواراة رسول الله.

أجاب عليّ:

ليدخل أوس بن خولّى...

ودخل الرجل البدرىّ يمشى على أطراف أصابعه لكأنّه يَلج عالماً زاخراً بالملائكة.

قال عليّ:

انزِل القبر!

ونزل الصحابىّ قبرَ مَن هداه إلى ينابيع النور والأمل، تمنّى أن يموت وتعود الحياة إلى سيّده العظيم. رفع عليٌّ الجُثمانَ الطاهر.. ووضعه على يدَى الصحابى، وبرفق أنزله فى أحضان الثرى، فاحت رائحة المسك.. لكأنّ الفردوس فتحت أبوابها تستقبل آخر رُسل السماء إلى الكوكب الزاخر بالحوادث.

طلب عليّ من أوس أن يُخْلى القبر فخرج باكياً، وولج عليّ الضريح.. كشف عن الوجه الأزهر الذى أضاء الدنيا والتاريخ. انطفأت الشمس غابت خلف الأفق المثقل بالغيوم.. كتِلالٍ من الرماد.. التراب علا الضريح شيئاً فشيئاً..

وجاءت فاطمة.. وهى لا تكاد تصدّق أنّ لدى أىّ أحد القدرة على أن يحثو التراب على رسول رب العالمين.

قالت مفجوعة:

أطابت نفوسُكم أن تحثوا التراب على رسول الله؟!

أخذت بكفّيها قبضة من التراب ... وضعتْه على وجهها الأزهر.. شمّته.. شعرت أنها ستختنق إذا لم تتنفس نسائم الهواء وهى تنبعث من مسامات التراب المُشْبع برائحة جنات الفردوس؛ همست بنت محمّد:

أن لا يَشمَّ مدى الزمان غَواليا

ماذا على مَن شمّ تُربةَ أحمدٍ

لقد غابت الشمس، وانطوت آخر ساعة من نهار الثلاثاء.

البرد يجوس خلال المدينة الحزينة؛ ونهض عليّ ينفض يديه من تراب القبر.. لقد غابت كلّ الأشياء الجميلة.. لم يعد للحياة معنى إلاّ فى مواصلة الدرب الذى أضاءه نورُ محمّد صلّى الله عليه وآله..

الغضب المقدس

وانبرى عليّ يسجّل احتجاجه ضد أوّل «فَلتة» فى تاريخ الإسلام:

أفسدتَ علينا أمرنا ولم تستشر ولم تَرْعَ لنا حقاً.

أجاب أبو بكر بشيء من اللين!:

بلى!. ولكن خَشِيت الفتنة.

وهنا سكت التاريخ!!

ولكن موقف عليّ ورفضه البيعة يعبّر عن موقف واضح ازاء الطريقة التى تمّت فيها معالجة واحدة من أهمّ المشكلات فى الحياة الإسلاميّة؛ والتزم عليّ جانب الصبر بالرغم من بعض العروض بالبيعة.

وظل عليّ على مواقفه حتّى وفاة زوجته فاطمة التى التحقت بالرفيق الأعلى بعد حوالى ثلاثة أشهر أو تزيد.

ونظر عليّ يميناً وشمالاً فلم يجد معه أحداً، حتّى عمّه العباس هو الآخر استُرضى فرضى أو وقف موقف الحياد والإعراض عن النزاع.

وقد عبّر عليّ بن أبى طالب عن أساه وحزنه بعد ربع قرن من حادثة السقيفة بقوله: أما والله لقد تقمّصها فلان وإنّه لَيعلم أنّ محلّى منها محلّ القُطب من الرحى. ينحدر عنى السَّيل ولا يرقى إلىَّ الطير؛ فسَدَلتُ دونها ثوباً وطَوَيت عنها كشحاً، وطفقتُ أرتئى بين أن أصول بيدٍ جَذّاء، أو أصبر على طخيةٍ عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه».

وهنا يقرّر الإمام الصبر: «فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفى العين قذىً وفى الحلق شجىً، أرى تُراثى نهباً».

إنّ المرء ليشعر من خلال هذا الخطاب عمق المرارة والأسى فى بَحّة الحزن ودرجة حرارة الكلمات وهو يستعرض تاريخ تلك الحقبة المريرة التى امتدّت لتستوعب ربع قرن من الزمن.

على مع القرآن

واعتزل عليّ.. أوى إلى منزله يجمع القرآن كما أنزله الله، وذكريات الآيات، تتوهّج فى قلبه.. وبين الفَيْئة والأخرى يقتحم بعضهم حُرمة الصمت. فعلى عليّ أن يبايع.. وفى كل مرّة كانت فاطمة تصدّ هجمات بعض «الصحابة»، لقد انتزعوا منها «فدكاً» وها هم يرومون انتزاع زوجها وقد أغمد ذا الفقار بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

رحيل فاطمة

وتمرّ الأيام مريرة.. وتذوى فاطمة.. كشمعة فى قلب الظلمات.. قوامها يزداد نحولاً.

سكتت فاطمة هى الأخرى.. صامَتْ كما صامت مريم من قبل.. وأدرك عليّ أنّ رحيلها سيكون وشيكاً، وأنّ «البيت» الذى بناه من جريد النخل ب «البقيع» سيكون النهاية.. سيشهد ذلك البيت انطفاء الشموع.. رحيل النجوم.. ومصرع شمس أضاءت حياته، مدّته بالدفء.. النور.. الأمل.

سكتت فاطمة.. والذين اشتكوا من بكائها لم يعودوا يسمعون أنيناً ينبعث من أعماق قلبٍ كسير. لم يَعُد أحد يسمع نشيجها إلّا الذين يمرّون بالبقيع.

غابت فاطمة كما تغيب النجوم خلف السحب الدكناء.. غابت فاطمة كفَراشة تبحث عن الشمس ... عن ربيع مضى تطارده ريحٌ شتائيّة.

غابت فاطمة.. لم يَعُد أحد يسمع بها.. إنّها تذوى وحيدة فى بيت من جريد النخل غادرته الحياة.. الملائكة لا تريد حياة الأرض، والحوريّات لا تعيش فى عالم التراب.. والذين اكتشفوا السماء لن يُطيقوا الانتظار.

وعندما يدرك الأنبياء أنّ مواعظهم لا تَجد آذاناً واعية فإنّهم سيتحدّثون بلغة الصمت..

فى «بيت الأحزان» كانت فاطمة تذوب كشمعة متوهّجة تحرق نفسها لتهب النور والدفء من حولها ... فاطمة تتحدّث بلغة الشموع.. لغة لا يسبر غورها إلّا فَراشات النور..ها هى فاطمة تصرخ بصمت:

بِدَوِيِّ صمتي أناديكم.. ثورتي تنطوي في حزني.. ورفضي كامن في دموعي.. وهذا كلّ ما أملكه من لُغة علّكم تفهمون خطابي، أنا مظلومة يا ربّي.. حرِّرني من هؤلاء.

ذوت الشمعة.. أحرقت نفسها.. لم يبق منها إلّا حلقات من نور واهن ... آن لها أن تنطفئ. الوجه يشبه قمراً أنهكته ليلةٌ شتائيّة طويلة.. بدا مُصفرّاً.. وكان الصوت واهناً تحمله أمواج حزينة ... والدموع غزيرة كسماء تمطر على هون.

رقدت فاطمة في فراشها.. وضعت يدها تحت خدّها.. أغمضت عينيها ونامت.. سمعتها «أسماء» تهمس بصوت ملائكي:

السلام على جبريل ... إلهي في رضوانك وجوارك ودارك دار السلام.

وجاء عليّ.. بدا مكسور الظهر.. كما لو أنّه ينوء بحمل جبال من الحزن.. راح يقرأ ما كتبته فاطمة قبل أن تغفو بسلام:

بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما أوصت به فاطمة بنت رسول الله ... وهي تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله.. وأنّ الجنة حقّ والنار حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور..

يا عليّ أنا فاطمة بنت محمّد زوَّجني اللهُ منك لأكون لك في الدنيا والآخرة..

حَنِّطني وغَسِّلني وكفّنيّ، وصلِّ عليّ وادفنّي بالليل ولا تُعلِم أحداً، واستودعك الله إلى يوم القيامة.

وهكذا شاءت فاطمة أن ترحل بصمت.. أن تُدفَن في قلب الليل.. أن يبقى قبرها مجهولاً لترسم سؤالاً كبيراً ما يزال حتّى اليوم يستفهم التاريخ والإنسان!

لم يدفن عليّ فاطمة حتّى دفن معها قلبه وحبّه العظيم، ثمّ يمم وجهه شطر الرجل الذي واراه الثرى بالأمس فيهمس لديه بكلمات الحزن.. ولوعة الفراق:

السلام عليك يا رسول الله عنّي وعن ابنتك النازلة والسريعة اللحاق بك.. قَلّ يا رسول الله عن صفيّتكَ صبري ورقّ عنها تَجلُّدي.. أمّا حُزني فسَرْمَد.. وأمّا ليلي فمُسهَّد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم..

وستُنبّئك ابنتُك بتظافر أُمّتك عل هَضْمِها، فأحْفِها السؤال، واستخبرها الحال..

هذا ولم يَطُل العهد، ولم يَخْلُ منك الذِكر.. والسلام عليكما.. سلام مُوَدّعٍ لا قالٍ ولا سَئِم.. فإن أنصرِفْ فلا عن مَلالة.. وأن أُقِم فلا عن سوءِ ظنٍّ بما وَعَد الله الصابرين »....

ونهض عليّ يواجه الدنيا وحيداً.. يشعر بالغربة، فلقد وارى بيده قلبه وسعادته وسيفه ذا الفقار.. تمتم بحسرة:

فَقْدُ الأحبّة غُربة.

توهجات الزمن الأول

بايع عليّ «مُكرَهاً».. وانطوى وحيداً يعالج همومه وأحزانه، وشيئاً فشيئاً بدأت عجلة الحياة تدور.. وقلّ الحديث عن مسألة الخلافة.. وانطلقت جيوش الفتح الإسلامي في الجبهات.. وانصرف عليّ إلى العمل.. يحفر الآبار ويفجّر العيون لتسيل أوديةٌ بقَدَر.. يحرث الحقل ويسقي الزرع لتخضرّ الأرض..

أنهى عليّ احتجاجه الصامت وعاد إلى المسجد.. إلى «الجماعة» بالرغم من كلّ الآلام..

- احتدم الجدل في مجلس الأول حول غزو دولة الروم؛ نظر أبو بكر إلى عليّ وكان ساكتاً، قال عليّ:

إن فعلتَ ظفرتَ.

قال أبو بكر:

بُشّرت بخير..

وانطلقت خيول الفتح الإسلامي تنشر النور في الشمال.

•كتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر أنّه وجد رجلاً فى بعض ضواحى العرب يُنكَح كما تنكح المرأة!! جمع أبو بكر جماعة من أصحاب النبىّ واختلفت الآراء فى عقوبته، فقال علىّ:

إنّ هذا ذنب لم تعمل به أُمّة من الأمم إلاّ أُمّة واحدة فصنع الله بها ما قد عَلِمتُم.. أرى أن يُحرَق..

كتب أبو بكر إلى خالد يأمره بتنفيذ الحكم.

•وصل وفد مسيحىّ إلى عاصمة الإسلام يحمل أسئلة عصره.. عجز «الخليفة» فى حوار «الجاثليق» فأرسل وراء علىّ..

قال الجاثليق:

أين وجه الربّ؟!

أمر علىّ بإشعال النار فى الحطب، وارتفعت ألسنة اللهب.. سأل علىّ زعيم الوفد:

أين وجه النار؟

قال الجاثليق:

هى وجهٌ من جميع الجهات.

هذه نار مصنوعة، لا يُعرَف وَجهُها، وخالقُها لا يُشبهها.. لله المَشرِقُ والمَغرِب.. فأينما تولّوا فثَمّ وجه الله.

وسكت الجاثليق خاشعاً!

مسار الأحداث

•وقعت بعض الحوادث العامة خلال تلك الحقبة التى امتدّت من ربيع الأول ۱۱ ه وحتّى جُمادى الأولى سنة ۱۳ ه.

فى طليعتها تحرّك الجيش الإسلامى بقيادة أُسامة بن زيد إلى أرض البلقاء حيث اصطدم بالحاميات الروميّة هناك وأحرز انتصارات فى تلك المواقع.

والجيوش الإسلاميّة بقيادة المثنّى بن حارثة الشيبانىّ تبدأ غزو العراق؛ وفى تلك الفترة تمّ اغتيال آزرمى بنت كسرى وعمّت الفوضى فى البلاد.

•كما وقع حادث له دلالته عندما قام خالد بن الوليد بقتل مالك بن نويرة وآخرين دون مبرّر مقنع، وقد عُدّ الحادث وقتها أفجع انتهاك لحقوق المسلم.

وفى سنة ۱۲ ه طلب أبو بكر من زيد بن ثابت أن يجمع القرآن الكريم.

هرقل امبراطور الروم يجهّز حملة ضخمة بقيادة (بانس)، والجيوش الإسلاميّة التى تقاتل فى الجبهة العراقية تقطع الصحراء متّجهة نحو الجبهة الشمالية لنجدة القوات الإسلاميّة المشتكبة مع الرومان؛ والجيوش الإسلاميّة تتقدّم باتجاه القسم الجنوبى من فلسطين.

•وفى جمادى الأولى من سنة ۱۳ ه تدهورت صحّة أبى بكر، فاستدعى كلاًّ من عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وبحث معهما خلافة عمر.

وكان الأخيران يدركان تماماً منزلة عمر لدى أبى بكر، قال عبدالرحمن: إنّ عمر أفضل من رأيك فيه.

وقال عثمان: إنّ سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله.

وطلب أبو بكر من عثمان أن يكتب عهده ... ويذكر التاريخ أن أبا بكر دخل فى اغماءة اثناء مقدّمة العهد واستمر عثمان فى الكتابة فسمّى «الخليفة الجديد»، وهنا أفاق أبو بكر وقرأ عثمان ما كتبه اثناء فترة الإغماء! فأقرّ «الخليفة» الأمر واستحسنه! وبهذه الطريقة تمت تسمية الثانى!

توهجات الزمن الثانى

تَسنّم عمر بن الخطاب قيادة وادارة الدولة الإسلاميّة وتمّت مبايعته كأمير للمؤمنين؛ وقد امتدت حكومته لتستوعب عقداً كاملاً من الزمن، قال علىّ فيها:

«حتّى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى فُلان بعده.. فصيّرها فى حَوْزةٍ خَشناء يغلظ كلمها ويخشن مَسّها، ويكثر العِثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصَّعبة إن أشنقَ لها خرم، وإن أسلس لها تقحّم».

•جمع عمر أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وآله بعد أن أصبح التأريخ للحوادث مشكلة، وكان السؤال: من أين نكتب التاريخ، وتضاربت الآراء، فقال علىّ عليه السّلام: من يوم هاجر رسول الله صلّى الله عليه وآله..

وهكذا بدأ التاريخ الهجرى.

•استدعى عمر امرأة وكانت حاملاً، فشعرت بالذعر وأجهضت حملها، واستشار عمر فى الدية، قال عبدالرحمن وعثمان:

لا عليك.. إنّما أنت مُؤدِّب.

فقال علىّ:

إن كانا قد اجتهدا فقد أخطأا، وإن لم يجتهدا فقد غَشّاك..

أرى عليك الدية.

•لم تُجْدِ العقوبة المفروضة آنذاك فى الحدّ من استمرار تعاطى الخمرة فى الشام؛ فبعث أبو عبيدة بن الجرّاح نداء استغاثة حول هذه الظاهرة، فاستشار عمر أصحاب النبىّ، فقال علىّ: اجعلها بمنزلة حدّ الفِرية «ثمانون جلدة».

إنّ الرجل إذا شرب هذى، وإذا هذى افترى؛ وأصبح رأى الإمام جزءً من القانون الإسلامى حتّى الآن.

•جاءت الشرطة تسوق امرأة راعية اتُّهمت بالزنا.

سأل عمر المرأة فاعترفت، وظنّ أن الأمر قد بات واضحاً، فأصدر حكمه برجمها.. وحضر علىّ فى الوقت المناسب، ورأى علىّ أمارات حزن عميق تموج فى وجه المرأة، فقال:

لعلّ بها عذراً.

وخاطب المرأة قائلاً:

ما حمَلَكِ على ما فعلتِ؟

قالت المرأة وهى تشهق بالبكاء:

كان لى خليط، وفى إبله ماء ولبن ولم يكن فى إبلى ماء ولا لبن، فاستسقيته فأبى أن يسقينى حتّى أُعطيه نفسى، فأبيتُ ثلاث مرّات، حتّى كدتُ أموت عطشاً.. فأعطيته الذى أراد فسقانى.

هتف علىّ عليه السّلام:

الله أكبر!..

ثمّ تلا الآية المباركة:

فمَنِ اضطُرّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه إنّ اللهَ غفورٌ رحيم.

وعندها سحب عمر حكم الموت.. وانطلقت المرأة سعيدة بالحياة.

•كانت الجيوش الإسلاميّة تندفع هنا وهناك من العالم وبرزت مشكلة الأرض المفتوحة، عندما طالب المسلمون بأربعة أخماس الأرض؛ على أساس ظاهر الآية، وحدث جدل واسع حولها فى المدينة، فأشار علىّ عليه السّلام على عمر بإبقاء الأرض بأيدى أصحابها الأصليّين، وإلزامهم بدفع ضريبة الخراج لسدّ حاجات الدفاع عن الأُمة؛ وكان لهذا الموقف الأثر الكبير فى انتشار الإسلام.

•وقعت جريمة فريدة فى «صنعاء» عندما أقدمت امرأة مع عشيقها على قتل زوجها، وتردّد عمر فى إصدار حكم القصاص، فهل يصحّ قتل الكثيرين بالواحد؟!

فقال علىّ متسائلاً:

أرأيتَ لو أنّ نفراً اشتركوا فى سرقة جزور، هذا عضواً، وهذا عضواً.. أكنتَ قاطعَهم؟

أجاب عمر:

نعم.

عندها قال علىّ عليه السّلام:

فكذلك.

وهنا كتب عمر إلى عامله هناك: أن اقتُلهما، فواللهِ لو اشترك أهلُ صنعاء كلّهم لقتلتُهم.

الحوادث

وقعت خلال العشرة أعوام تلك حوادث مهمّة، فعلى الصعيد الثقافى منع عمر تدوين الحديث، وعرّض بذلك تراث سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وآله إلى خطر الضياع، غير أنّ علياً عليه السّلام كان قد انبرى إلى جمع القرآن وتدوين الحديث منذ اليوم الأوّل لرحيل النبىّ صلّى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى، فأصبح المرجع الأول فى الأحكام باعتراف الجميع. وشهد هذا العقد من الزمن تتابع الفتوحات الإسلاميّة؛ ففى الجبهة العراقية تولّى سعد بن أبى وقّاص قيادة الجيوش هناك بعد مصرع أبى عُبيدة الثقفى.

وفى الجبهة الشاميّة كانت الجيوش الإسلاميّة تواصل معاركها الضارية مع الرومان بعد معركة اجنادين الحاسمة، وقوّات الإسلام تفتح عشرات المدن هناك.

وفى سنة ۱۴ ه تُوفّى سعد بن عبادة فى طريقه إلى الشام فى ظروف غامضة.

وفى السنة الخامسة عشر من الهجرة وبعد مضىّ عامَين على حكم عمر بن الخطاب.. بدأ الأخير فى تنفيذ سياسة ماليّة جديدة مخالفاً بذلك سُنّة النبىّ صلّى الله عليه وآله و سياسة أبى بكر، وبدأ منذ ذلك التاريخ التمييز فى نظام العطاء، فى تقدّم «البدريين» على غيرهم، وتفضيل المهاجرين على الأنصار، وتقديم أُمّهات المؤمنين على غيرهنّ، وتصنيف سائر شرائح المجتمع الإسلامى على أساس الانتماء القبلىّ، فتجذّرت بذلك ظاهرة العصبيّة التى ساعدت فيما بعد على توفير المناخ المناسب للعنصريّة؛ ونهضت عليها سياسة الحكم بعد ثلاثة عقود من الزمن.

وفى تلك الفترة ألغى عمر مَنْحَ المؤلّفة قلوبهم الامتيازات الماليّة التى كانوا يحصلون عليها، وقد عُدّت هذه الخطوة فى الدراسات المعاصرة محاولةً ناجحة فى دمج تلك الشريحة المعادية للإسلام فى الباطن بالمجتمع الإسلامى، وتمهيد الطريق أمام بنى أمية فى تسنّم أرفع المناصب القياديّة؛ فإذا أضفنا إلى ذلك سياسته تجاه ولاة المدن التى تتّسم بالشدّة والقسوة فى بعض الأحيان، واستثناء معاوية بن أبى سفيان من ذلك حتّى أصبح الوالى المدلّل، فإن الأمر سوف يدعو إلى التساؤل عن بواعث هذا الاستثناء!

اضاءتان

•سافر أحدهم بعد أن أودع أمرأتَيه لدى صديق له، وكانتا حاملَين فوضعت كلتاهما، وضعت إحداهما بنتاً والأخرى صبيّاً، واندلع النزاع حول الصبىّ، حين ادّعته المرأتان.

وجاء الصديق يستنجد بالقضاء لحلّ هذه المعضلة، وعرض عمر ملفّ القضية على الصحابة فلم يجد لديهم حلاًّ، فقال عمر:

أما واللهِ إنى لأعرف مَن لها.

وأدرك بعضهم ما عناه «الخليفة» فقال:

كأنّك تعنى علياً.

أجل.

وتطوّع أحدهم باستدعاء علىّ ولكنّ عمر رفض ذلك قائلاً:

فى بيته يُؤتَى الحَكَم.

ونهض الجميع منطلقين إلى ابن عم النبىّ صلّى الله عليه وآله؛ وبعد لأْيٍ وجدوه فى بُستان يعمل ... سمعوا صوته وهو يرتّل آيات من القرآن فيمتزج الترتيل بالبكاء والدموع:

أيَحسَب الإنسانَ أن يُترَكَ سُدى، ألم يَكُ نُطفةً من مَنِيٍّ يُمنى، ثمّ كان عَلَقةً فخَلَقَ فسَوّى، فجَعَلَ منه الزوجَينِ الذَّكرَ والأُنثى، أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحيىَ الموتى.

ونظر بعضهم إلى بعض.. فالقضيةُ التى جاءوا من أجلها تدور حول ذَكَر وأُنثى!

رحّب الإمام بضيوفه وروى عمر ما جاءوا من أجله.. فأشار إلى الرجل وقال:

إنّ هذا ذَكَرَ أنّ رجلاً أودعه امرأتَين، فوضعتا جميعاً، إحداهما ولداً ذَكَراً والأخرى بِنتاً، وكلتاهما تدّعى الابن وتنفى البنت.

إجتث الإمام شوكة صغيرة من الأرض وقال:

القضاء فيها أيسر من هذه.

أمر الإمام بإحضار قدحَين متساوِيَين فى الوزن، والتفت إلى إحداهما وقال: احلبى فى هذا القدح.. فحلبت.. وقال للأخرى مثل ذلك.. وجِيءَ بميزان للصاغة فوُضع فى طرفَيه القدحان وكان حجم الحليب متساوياً؛ ودُهش الصحابة وهم يرون أنّ أحد القدحَين يرجح على الآخر، فقال لصاحبة القدح الأثقل: خُذى ولدَكِ، والتفت إلى الأُخرى فقال: خُذى ابنتك، والتفت إلى عمر. فقال: لَبَن البنت على النصف من لَبَن الولد، وميراثُها نصف ميراثه.

وأُعجب عمر بقضاء الإمام فقال متأثراً:

لقد أرادك الحقُّ يا أبا الحسن ولكنّ قومَك أبَوْا!

فقال الإمام بشىء من الحزن:

هَوِّن عليك أبا حفص.. إنّ يومَ الفصل كان ميقاتا.

●واندلعت أزمةٌ قضائيّة أخرى، عندما أقدمت امرأة على افتضاض بكارة فتاةٍ يتيمة كان الرجل قد ربّاها فى بيته، وخشيت المرأة بعد أن رأت تلك الفتاة قد شبّت وأضحت فائقة الجمال أن يُقدم زوجها على الزواج منها، فانتهزت سَفَر الزوج وسقتها الخمرة وأزالت بكارتها بيدها بمعاونة بعض جاراتها؛ وعندما عاد الزوج اتّهمت الزوجةُ الفتاةَ بالبغاء. وحار عمر فى فصل القضيّة، فانطلق مع أصحاب الدعوى وجمعٍ من الصحابة إلى الإمام علىّ عليه السّلام.

سأل علىّ الزوجة عن البيّنة فى هذا الاتهام:

ألكِ بيّنة أو بُرهان؟

أجابت المرأة:

هؤلاءِ جاراتى يشهدنَ عليها بما أقول.

وجاءت النسوة فشهدن ضدّ الفتاة؛ ودخلت القضية مطبّاتها أمام إصرار الفتاة بأنّها لم ترتكب مثل هذا الإثم.

أمر الإمام بإجراءٍ لم يسبق له مثيل عندما طلب التفريق بين الشهود؛ بدأ الإمام استجوابه التحقيقىّ مع زوجة الرجل، فحذّرها من عاقبة القذف فأصرّت المرأة على موقفها، فغادر الإمام الحجرة إلى حجرة أخرى حيث توجد إحدى الشاهدات؛ استلّ الإمام سيفه ذا الفقار

من الغمد، وجثا على ركبتيه وخاطبها قائلاً:

أتعرفينى..؟ أنا علىّ بن أبى طالب وهذا سيفى..

ثم أردف قائلاً:

وقد قالت امرأةُ الرجل ما قالت ورجعتْ إلى الحقّ، فاصدقى القول وإلاّ ملأتُ سيفى منك.

وانهارت المرأة فالتفتتْ إلى عمر قائلة:

يا أمير المؤمنين، الأمانَ على الصدق؟

قال الإمام:

فاصدقى إذن.

واعترفت المرأة بجريمة صاحبتها، فقالت:

واللهِ ما بَغَت الفتاة.. ولكنّ زوجة الرجل رأت فيها جمالاً وهيئة.. وخافت أن يتزوّجها، فسقتها المُسكر ودعتنا فأمسكناها فافتضّتها باصبعها!

وهنا هتف الإمام: الله أكبر.. أنا أوّل مَن فرّق بين الشهود بعد دانيال النبىّ..

وأصدر الإمام حُكمه فى القضاء:

على المرأة حَدُّ القَذْف وجميع العقر وهو أربعمئة درهم ... وأن تنفى من الرجل.

وانتهز عمر الفرصة فقال للإمام:

حدِّثنا يا أبا الحسن حديث دانيال.

فقال عليه السّلام:

كان دانيال النبىّ يتيم الأبوَين.. احتضنته امرأة من بنى إسرائيل فربّته.. وإن مَلِكاً من ملوك بنى إسرائيل كان له قاضيان، وكان لهما صديق وكان رجلاً ـ صالحاً وله زوجة صالحة على جانب كبير من الجمال، فبعثه الملك فى بعض أموره؛ فقال الرجل للقاضيين: أُوصيكما بامرأتى خيراً؛ وخرج الرجل، وكان القاضيان يأتيان باب الصديق، فعشقا امرأته فراوداها عن نفسها، فأبت. فقالا لها: إن لم تفعلى لنشهدنّ عليكِ عند الملك بالزِّنا ثمّ لنرجمنّك.

فقالت: إفعلا ما أحببتُما.

فأتيا الملك فشهدا عنده أنّها بغت، وكان لها ذِكْر جميل، فاعترى الملكَ من ذلك أمر عظيم واشتد غمّه فقال لهما: إنّ قولكما مقبول فأجِّلوها ثلاثة أيّم ثمّ ارجموها.

ونادى المنادى فى تلك المدينة أن احضُروا رجم فلانة العابدة فإنّها قد بغت، وقد شهد عليها القاضيان.

فأكبر الناس هذا العمل ودُهِشوا له، وقال الملك لوزيره: ما عندكَ فى ذلك؟ هل من حيلة؟ فقال الوزير: ما عندى فى ذلك من شىء.

فخرج الوزير فى اليوم الثالث فإذا بغلمان عُراة يلعبون وفيهم دانيال، فقال دانيال لأصحابه: تعالوا نلعب فأكون أنا الملك وتكون أنت يا فلان العابدة، ويكون فلان وفلان القاضيَين الشاهدَين عليها. وأمسك بقصبة وقال: وهذا سيفى، ثمّ قال: خذوا بيد هذا الشاهد فاجعلوه فى مكان كذا، ثمّ دعا أحدهما وقال: إن لم تَقلْ حقّاً قتلتُك.. بِمَ تشهد على هذه المرأة؟ فقال: أشهد أنّها زنت.

قال: متى؟

قال: يومَ كذا وكذا.

قال: مع من؟

قال: مع فلان بن فلان.

قال: فى أىّ مكان؟

قال: فى مكان كذا وكذا.

قال: رُدّوه إلى مكانه.

وجاء بالآخر.

فقال: علامَ تشهد؟

قال: أنّها زنت.

قال: فى أىّ يوم.

قا: فى يوم كذا وكذا.

قال: مع من؟

قال: مع فلان بن فلان.

قال: فى أىّ موضع؟

قال: فى موضع كذا وكذا.

فخالف صاحبَه فى الشهادة.

فقال دانيال: الله اكبر! شَهِدوا بزور.. نادِ فى الناس أنّ القاضيَين شهدا على فُلانة بالزُّور فاحضُروا قَتْلَهما.

فـذهب الوزير إلى الملـك مبـادراً فـأخبره بما رأى، فبعث الملك إلى القاضـيَين، ففرّق بينهما، وفعل بهما كما فعل دانيال.. فاختلفا فى القول كما اختلف الغلمان، فنادى فى الناس وأمر بقتلهما.

النهاية

كان عمر قـد أصـدر أمراً بحرمان كل من بلغ الحُلم من السَّبِىّ الفارسـىّ أن يـدخل المدينـة، فكتب المغيرة بن شـعبة الداهية المعروف وكـان واليـاً على الكوفـة، كتب إلى عمر يـذكر له غلامـاً من أهـل فـارس يُحسن كثيراً من الصـناعات، وطلب من الخليفـة أن يأذن له بدخول المدينة، وجاء فى رسالته:

إنّ عنـده أعمالاً كثيرة فيها منافعُ للناس؛ إنّه حـدّاد ونقّاش ونجّار. فكتب إليه عمر أن أرسـله إلى المدينـة، وكان المغيرة قـد حدّد على الغلام ضريبةً باهظة فى الخراج بلغت مئة درهم؛ وجاء الغلام ويُدعى أبو لؤلؤة (فيروز) إلى عمر يشكو شدّة الخراج.

فقال له عمر: ماذا تحسن من العمل؟

فذكر الغلام عدّة صناعات وفنون:

فقال عمر: ما خراجك بكثير فى كُنه عملك.

فانصرف الغلام ساخطاً يتذمّر.

وبعد أيام مرّ غلام المغيرة «أبو لؤلؤة» بعمر فسألة قائلاً:

سمعتُ أنّك تقول: لو أشاء لصنعتُ رحى تطحن بالريح، فاصنع لى رحىً.

فالتفت الغلام إلى عمر وقال عابساً:

لأصنعنّ لك رَحىً يتحدّث بها الناس!

وأدرك عمر مغزى تهديده..

فالتفت إلى مَن حوله بعد أن مضى الغلام:

لقد أوعدنى العبد.

فقال له الناس:

وما يمنعك من قتله؟

فقال عمر:

لا قِصاص قبل القتل.

شاهد عيان (۲۵ ذو الحجة ۲۳ ه)

قال ابن ميمون الأسدى: شهدتُ عمرَ بن الخطاب يوم طُعِن فما منعنى أن أكون فى الصفّ الأول إلاّ هيبته، فكنت فى الصف الذى يليه؛ وكان عمر لا يكبّر حتّى يستقبل الصف المتقدّم بوجهه، فإن رأى رجلاً متقدّماً من الصف أو متأخراً ضربه بالدرّة.. وهذا ما منعنى من الوقوف فى الصف الأول.

أقبل عمر لصلاة الفجر، وكان الظلام ما يزال، فاعترضه أبو لؤلؤة وسدّد له عدّة طعنات بخنجر ذى رأسين، وطعن الذين أرادوا إلقاءَ القبض عليه.

وصرخ عمر بالناس:

دونكم الكلب فإنّه قد قتلنى!

ومات من الذين جُرحوا فى الحادث سبعة أشخاص.

مصير الخلافة

تدهورت حالة «الخليفة» الصحّية، ونصح الطبيب بكتابة الوصيّة، وبرزت أزمة الخلافة من جديد، فلا أحد يعرف من سيكون الخليفة القادم وكيف؟ وقيل لعمر: لو استخلفت؟

فقال: ومَن استخلف؟! لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفتُه لأنّه أمين هذه الأمّة، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفتُه لأنّه شديد الحبّ لله.

ثمّ شكّل مجلساً يتألّف من ستة أشخاص هم: علىّ بن أبى طالب، الزبير بن العوّام، عبدالرحمن بن عوف، سعد بن أبى وقّاص، طلحة بن عبيدالله، عثمان بن عفّان.

وضع عمر مساراً لأعمال المجلس، وحدّد امتيازات الأعضاء بشكل تسير فيه الأمور لتسقط التفاحة فى أحضان «عثمان ابن عفان» عثمان الذى حرّر بالأمس وثيقة العهد إلى عمر لمّا أُغمى على أبى بكر! هل كان إجراء عمر نوعاً من ردّ الجميل أو استجابةً لما يموج فى عواطف «قريش» التى لا تُكنّ لعلىّ أيّة مشاعر بالارتياح.

استدعى عمر أعضاء المجلس المؤقّت، فجاءوا جميعاً، وتصفّح عمر وجوه بعضهم قائلاً:

أكلُّكم يطمع بالخلافة بعدى؟

واعتصم الجميع بالصمت.. وكرّر عمر السؤال ثانية وثالثة.. فانبرى الزبير وقال بحدّة:

وما الذى يبعدنا عنها؟!.. وَلِيتَها أنت فقُمتَ بها، ولسنا دونك فى قريش.. ولا فى القرابة.

لقد نجح عمر بن الخطاب فى إيقاظ كلّ الطموحات والأطماع فى نفوس بعض الصحابة.

وانبرى عمر ليردّ الصاع صاعَين فى صراحة مريرة قائلاً:

أفلا أُخبركم عن أنفسكم؟

تمتم بعضهم:

إنّا لو استعفيناك لم تُعفنا.

التفت عمر إلى الزبير فقال:

أمّا أنت يا زبير.. فوَعِقٌ لَقِس (كثير البرم) مؤمن الرضى كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان؛ ولعلّها (الخلافة) لو أفضت إليك ظلتَ يومك تلاطم بالبطحاء على مُدٍّ من شعير!! فليت شعرى مَن يكون للناس يوم تكون شيطاناً؟!

والتفت إلى طلحة فقال:

أقولُ أم أسكت؟

ردّ طلحة بانزعاج:

إنّك لا تقول من الخير شيئاً.

أما إنّى أعرفك منذ أُصيبت إصبعك يوم أحد واتياً (غاضباً) بالذى حدث لك.. ولقد مات رسول الله ساخطاً عليك للكلمة التى قلتَها يوم أُنزلت آية الحجاب.

وشعر سعد بن أبى وقاص بالضيق بعد أن وصل إليه الدَّور؛ قال عمر وقد أقبل عليه بوجهه:

إنّما أنت صاحب مقنب (جماعة الخيل) تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وأسهم، وما زهرةُ والخلافة وأمور الناس.

والتفت «الخليفة» إلى عبدالرحمن بن عوف وقال:

أمّا انت يا عبدالرحمن، فلو وُزِن نِصف إيمان المسلمين بايمانك لَرجح إيمانك.. ولكن لا يصلح هذا الأمر لمن فيه ضَعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر!

و اما أنت يا على

والتفت عمر إلى علىّ فلم يجد له عيباً سوى أن قال:

للهِ أنتَ لولا دعابة فيك.. أما واللهِ لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحقّ الواضح، والمحجّة البيضاء.

و جاء دور عثمان

والتفت عمر إلى عثمان «مرشَّح قريش» فقال له:

هَيهاً إليك، كأنّى بك قد قَلَّدتْك قريش هذا الأمر لحبّها إيّاك فحملتَ بنى أُميّة وبنى أبى معيط على رقاب الناس، وآثرتَهم بالفىء فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلتَ ليفعلنّ..

وأخذ عمر بناصية عثمان وأردف:

إذا كان ذلك فاذكُر قولى.

وهنا جاء دور الاجراءات المشدّدة فى خلق جوٍّ إرهابىّ سوف يساعد على دعم وتعزيز موقف عثمان.

استدعى عمر أحد الأنصار وقال:

يا أبا طلحة، إنّ الله أعزّ الإسلام بكم، فاختَرْ خمسين رجلًا من الأنصار فألْزِم هؤلاء النفر (أعضاء الشورى) بإمضاء الأمر وتعجيله.

واستدعى «المقداد» وأصدر إليه آخر أوامره التى تنضح تهديداً ووعيداً:

اجمع هؤلاء الرهط (أعضاء الشورى) فى بيتٍ حتّى يختاروا رجلًا منهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشرخ رأسه بالسيف، وان اتّفق اربعة وأبى اثنان فاضرب رأسَيهما، وإن اتّفق ثلاثة منهم على رجل ورضى ثلاثة منهم برجل آخر فحَكِّموا عبدالله بن عمر؛ فإن لم

يرضَوا فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف؛ واقتُلوا الباقين!

وأدرك عليّ من خلال كلّ هذا «السيناريو» أنّ الهدف الأخير هو حرمانه مرّة أخرى من حقّه فى الخلافة.. فقال لعمّه العباس:

يا عمّ، لقد عدلت عنا.

قال العباس:

ومَن أدراكَ بهذا؟!

قال عليّ وهو يُميط اللثام عمّا وراء كلّ هذا «اللفّ والدوران»:

لقد قُرِن بى عثمان.. وقال: كونوا مع الأكثر، ثم قال: كونوا مع عبدالرحمن، وسعد لا يخالف ابنَ عمّه (عبدالرحمن)، وعبدالرحمن صِهر لعثمان.. فإمّا أن يولّيها عبدُالرحمن عثمانَ، أو يولّيها عثمانُ عبدَالرحمن ».....

يقول عليّ مؤرّخاً لتلك اللحظات المريرة:

«فصبرتُ على طُول المدّة وشِدّة المِحنة، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زَعَم أنّى أحدهم، فيالله وللشورى.. متى اعترض الريبُ فِيَّ مع الأوّل منهم، حتّى صرتُ أُقرن إلى هذه النظائر؟! لكنىّ أسْفَفْتُ إذ أسَفّوا وطِرْتُ إذ طاروا، فصغا رجل لضغنه ومال الآخر لصِهره مع هن وهنٍ، إلى أن قام ثالثُ القَوم نافجاً حِضنَيه بين نَثيله ومُعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمةَ الإبل نبتةَ الربيع.

وهكذا بدأت أعمال الشورى فى ظروف بالغة الحسّاسيّة.. وبدأت الأطماع بالظهور؛ والمصالح والمؤامرات فى موازنات يمكن القول أنّها محسوبة سلفاً؛ فالتوزيع القبلى لأعضاء الشورى يمنح الأرجحية لبنى أُميّة.

لقد توقّف التاريخ ملياً فى السقيفة قبل أن يُغيّر مساره، وها هو الآن يتوقّف مرّة أخرى لا ليغيّر من اتّجاهه ولكن ليزيد من سرعة ذات المسار، حيث المجتمع الإسلامىّ يفقد مقاييسه الصائبة فى اختيار الحاكم اللائق.

تُوفّى عمر بعد ثلاثة أيّام وصلّى على جسمه صُهَيب الرومى فى غرّة المحرّم؛ وبدأ أوّل لقاء لأعضاء الشورى؛ وارتفعت نبرة الجدل العقيم.. لقد استيقظت فى نفوس البعض شهوةُ الحُكم والزعامة، وضاع صوت علىّ سلام الله عليه وهو يحذّر أصحاب النبىّ من العواقب الوخيمة التى ستُسفر عن التنكّر لكلمة الحقّ:

لم يُسرِع أحدٌ قبلى إلى دعوة حقّ، وصِلة رَحِم، وعائدة كرم.. فاسمَعُوا قولى، وعُوا منطقى، عسى أن تَرَوا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تُنتضى فيه السيوف، وتُخان فيه العهود، حتّى يكون بعضُكم أئمّة لأهل الضلال، وشيعةً لأهل الجهالة.

ومرّ يومان.. ولكن دون جدوى، وقد حبس المجتمع الإسلامىّ أنفاسه، مترقّباً نتيجة الجدل الذى تحوّل إلى صراع.

وجاء أبو طلحة الأنصارى وأعلن أنّه سيُنفّذ أوامر «الخليفة الراحل» إذا انصرمت الأيّام الثلاثة دون انتخاب خليفة:

والّذى ذَهَبَ بنَفْسِ عمر.. لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أُمِرت.

وهنا وجّه عبدالرحمن أوّل ضربة عندما أعلن تنازله عن حقّه فى الخلافة مقابل أن يكون له الحقّ فى انتخاب الخليفة، وانبرى عثمان لتأييد خطوة ابن عوف، وتهافت الآخرون على تأييد عبدالرحمن أيضاً.. فيما ظلّ الإمام علىّ مُعتصماً بالصمت.

التفت عبدالرحمن إلى علىّ وقال:

ما تقول يا أبا الحسن؟

أدرك الإمام ما وراء خطوة ابن عوف فقال:

أعطِنى مَوثِقاً لتُؤثرنَّ الحقّ.. ولا تتبعنّ الهَوى، ولا تخصّ رحماً، ولا تألو الأمّة نُصحاً.

وشعر عبدالرحمن أنّ مصير الخلافة قد أضحى فى قبضته، فأعطى لعلىّ ما يريد.. إنّها فى كلّ الأحوال مجرّد كلمات.

وهنا وجّه عبدالرحمن سهمَه الخبيث عندما زجّ شرطاً لا مُبرّر له كأساسٍ للبيعة؛ قال لعلىّ وهو فى ذروة اعتقاده أنّ علياً سيرفض:

أُبايعكَ على كتاب الله وسُنّة رسوله وسيرة الشيخَين أبى بكر وعمر.

قال عليّ موضّحاً موقفه الخالد ومعتزّاً بشخصيته الفريدة:

بل على كتاب الله وسُنّة رسوله واجتهاد رأيى.

والتفت عبدالرحمن إلى عثمان فعرض عليه شروط البيعة.. فرددها عثمان على الفور وهو يكاد يطير فرحاً.

وهنا صَفَق عبدالرحمن على يد عثمان وهتف:

السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وخاطب علىُّ بن أبى طالب عبدالرحمن قائلاً:

اِحْلِب حَلباً لك شَطْرُه...

وأردف وهو يكشف له معرفته ما يدور فى الخفاء وراء الأبواب المغلقة:

والله ما فعلتَها إلاّ لأنّك رجوتَ منه ما رجا صاحبُكما من صاحبه.

والتفت علىّ إلى «قريش» التى ألقت بكلّ ثقلها من أجل عثمان، فقال بمرارة:

ليس هذا أوّل يوم تظاهرتُم فيه علينا، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تَصِفون.

ونهض وغادر المكان وهو يتمتم بحزن:

سيَبْلُغ الكتابُ أجَلَه.

وشعر عمّار بن ياسر بالألم يعتصر قلبه.. فقال لعبد الرحمن:

«يا عبدالرحمن! أما واللهِ لقد تركتَه وإنّه من الذين يقضون بالحقّ وبه يعدلون».

وأحس «المقداد» كأن خنجراً يمزّق قلبه.. فقال:

تاللهِ ما رأيتُ مثل ما أُتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم!!

واعجباً لقريش!! لقد تركتْ رجلاً ما أقول ولا أعلم أنّ أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم، ولا أتقى منه.

وأردف بغضب:

أما لو أجدُ أعواناً..!

ولم تكن الصفات التى ذكرها المقداد سوى كلمات لا تُرتضى فى زمن يتنكّر للمجد الأخلاقى.. ولا يعرف غير الأساليب الهابطة طريقاً لتحقيق غايات تافهة سرعان ما تزول.

وهكذا بات على علىّ أن يطوى رحلة العذاب صابراً محتسباً حتّى يبلغ الكتاب أجله.

۲ فى السنة السادسة للهجرة عزم النبىّ صلّى الله عليه وآله على أداء العمرة، وكان من المفروض أن تسمح قريش لهم بذلك أُسوةً بسائر القبائل العربية، ولكنّ مشركى مكّة رفضوا ذلك بعناد، وعسكر النبىّ صلّى الله عليه وآله فى الحُديبية قرب مكّة وأرسل وفداً يشرح لهم أهداف زيارته، وتأزّم الوضع بشكل أنذر بوقوع حرب مدمّرة، وأخيراً اتفّق الفريقان على إبرام معاهدة سلام جاء فيها:

۱ إنهاء حالة الحرب مدّة عشر سنين.

۲ أن يرجع النبىّ صلّى الله عليه وآله وأصحابه هذا العام دون عُمرة، على أن يعودوا فى العام القادم، وتلتزم قريش بإخلاء مكّة مدّة ثلاثة أيام.

وعندما أراد علىّ بن أبى طالب عليه السّلام تحرير بُنود الاتفاق وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» اعترض المفاوض الوثنىّ وأصرّ على كتابة «باسمك اللهمّ» وكتب على «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» واعترض الأخير أيضاً قائلاً: اكتب اسمك واسم أبيك، ولم تطاوع نفس علىّ أن يمحو صفة الرسالة عن سيدنا محمد، فأخذ النبىّ صلّى الله عليه وآله الصحيفة ومحاها بنفسه والتفت إلى على وقال بحزن:

إنّ لكَ مِثلَها يا عليّ!

لقد كان سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله ينظر إلى المدى البعيد، إلى أبعد من ثلاثين سنة قادمة! سوف يحارب عليّ فى صفّين «القاسطين» معاوية وأتباعه، وسوف يُضطَرّ عليّ إلى وقف القتال والتفاوض.

وعندما يحرّر عبدالله بن عباس بُنود الاتفاق ويكتب: هذا ما صالح عليه عليّ أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، سوف يعترض المفاوض الشامى قائلاً: لو شهدت بأنّ عليّاً أمير المؤمنين ما قاتلُه، بل اكتب «علىّ بن أبى طالب»، ويرفض عبدالله بن عباس ذلك فيأخذ عليّ صحيفة الاتفاق ويمحو «أمير المؤمنين» وهو يستعيد تفاصيل ما وقع فى «الحديبية».

توهجات الزمن الثالث

بدأت بحكومة عثمان حقبةٌ زمنيّة جديدة، حقبة شهدت ظهور أعداء الإسلام القُدامى من أمثال أبى سفيان ومروان والوليد وتولّيهم المناصب الرفيعة، وأصبحت مُقدّرات البلاد وثرواتها حكراً على بنى أُميّة. وارتفعت القصور المنيفة إلى جانب الأكواخ لتشهد على مدى الحيف الذى حلّ بالشرائح المسحوقة من المجتمع الإسلامىّ.

وأدرك أبو سفيان أن الأوان قد آن للثأر من محمّد، فجاء إلى «الخليفة الثالث» وخاطبه بكل وقاحة قائلاً:

يا بنىّ أُمية تلاقفوها تلاقُف الكرة، فَوَالذى يحلف به أبو سفيان.. لا جنّة ولا نار.

●جاءت الشرطة تسوق إمرأة شابة تزوّجت منذ ستة أشهر وقد أنجبت.. فثارت الشكوك حول عِفّتها قبل الزواج؛ ورفع الزوجُ الأحمق الشكوى ضدّها، فأصدر «خليفة المسلمين» عثمان حُكماً بإعدامها رجماً بالحجارة؛ وأُخذت المسكينة إلى ساحة الاعدام، كانت تنظر إلى السماء بعينَين غارقتَين بالدموع فليس هناك من يطلّع على السرائر سوى الله..

قالت الفتاة الشابة التى لم تهنأ بعد بعرُسها ... قالت لأُختها:

يا أُختيّة لا تحزنى ... فوالله ما مسّنى أحدٌ قطّ غيره.

وهبّ علىّ بن أبى طالب بعدما اطّلع على حيثيات القضية فقال لعثمان:

إن خاصمتُك بكتاب الله خصمتُك.

!!؟

إنّ الله تعالى يقول: وحَمْلُه وفِصالُه ثلاثون شهراً.

ثمّ قال عزّوجلّ: والوالداتُ يُرضِعنَ أولادهنّ حَوْلَين كاملَين لمن أراد أن يُتِمّ الرَّضاعة.

فحولَين مدّة الرضاعة وستة أشهر مدّة الحمل.

جرت العملية الحسابية فى ذهن عثمان بسرعة فقال مبهوتاً:

ما فطنتُ لهذا!

ثمّ أصدر أمره باطلاق سراح الفتاة وإلغاء عقوبة الموت بحقّها، ولكن رسول الخليفة وصل متأخّراً ... لقد تمّ تنفيذ الحكم ورحلت الفتاة إلى السماء تشكو إلى بارئها ظلم الإنسان.

●بلغ استهتار الوليد بن عقبة والى الكوفة حدّاً لا يطاق؛ ولكن الوليد لم يكن ليكترث لأىٍّ كان مهما بلغت منزلته، فهو أخو «الخليفة» لأُمّه؛ وهكذا انصرف إلى حياة الملاذ والترف، وهام بالخمرة يكرع كؤوسها سرّاً وعلانية.

وجاء ذات صباح إلى المسجد يترنّح سكرانَ بنشوة الخمر، وراح يقرأ فى صلاته بعد أن وقف بصعوبة فى المحراب:

عَلِقَ القَلبُ الرَّبابا.. بعدما شابَتْ وشابا

ويقول فى سجوده:

اشرب واسقِنى.

واجتاحته رغبة عارمة بالقىء فتقيّأ!

وهكذا أتمّ الوالى صلاة الفجر فى أربع ركعات.. والتفت ليخاطب المسلمين بكل وقاحة:

هل أَزيدكم؟!

أجاب الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود ساخطاً:

لا زادك الله خيراً.. ولا مَن بعثك إلينا.

وراح الناس يقذفونه بالحصى وهو يترنّح فى طريقه إلى القصر..

أثار الحادث غضب جماهير الكوفة، فانطلق وفد إلى المدينة بعد أن انتزعوا خاتم الوالى السكران..

وقابل عثمانُ الوفدَ بلهجة فيها غيظ وغِلظةٌ قائلاً:

وما يُدريكم أنّه شرب الخمر؟

أجاب أعضاء الوفد:

هى الخمر التى كنّا نشربها فى الجاهليّة.

وقدّم أحدهم إلى عثمان خاتم الوليد:

انتزعناه من إصبعه وقد كان ثملاً.

شعر عثمان بالحقد، فضرب أحد اعضاء الوفد فى صدره ودفعه. وغادر الوفد القصر آسفاً لموقف عثمان.. ولم يجد الوفد الكوفىّ حلاًّ سوى اللجوء إلى علىّ بن أبى طالب فلعلّه يوقف عثمان وولاته عند حدودهم.

وانتفض علىّ وهرع إلى القصر وخاطب عثمانَ بلهجة تتشظّى غضباً مقدّساً:

دفعتَ الشهودَ وأبطلتَ الحدود؟!

وأدرك عثمان أنّ الأمور دخلت منعطفاً خطيراً، فقال بلهجة فيها مداراة:

ما ترى؟

قال علىّ بحزم:

أرى أن تبعث إلى صاحبك (الوليد).. فإن قامت الشهادة فى وجهه ولم يُدْلِ بحُجّة أقمتَ عليه الحدّ. وصدر أمر باستدعاء والى الكوفة للتحقيق معه حول الحادث؛ وجاء الوليد غير مكترث كعادته.. إنّه يعرف عثمان جيداً!

حضر الشهود وأدلوا بإفاداتهم ضد الوليد بأنّه شرب الخمر، وصلّى الفجر ثملاً أربع ركعات وتقيأ فى المحراب:

لم ينبس الوليد ببنت شفة واكتفى بالنظر ساخراً إلى وجوه الشهود ... كانت لحظات مثيرة، فقد أصبح حكمه واضحاً أن يُجلَد ثمانين سوطاً عقوبةَ شارب الخمر.. ولكن مَن يجرؤ على تنفيذ الحكم وهو «أخو الخليفة» ووالِيه المدلّل!

ومرّة أخرى نظر الوليد بسُخرية إلى من جاءوا يشهدون عليه.

وهنا حدث ما لم يخطر ببال أحد، فقد اندفع علىّ وانتزع السوط، وفّر الوليد هنا وهناك.. ولكن عليّاً سرعان ما أمسك به وضرب به الأرض، وتوالت سياط علىّ الغاضبة تُلهب جسم الوالى الفاسق؛ وصرخ عثمان:

ليس لك أن تفعل هذا به!

فردّ علىّ بغضب سماوىّ:

بل وشرّ من هذا إذ فسق ومنع حقّ الله أن يؤخذ منه!

وهكذا سقط الوالى إلى الحضيض.. ولكن عثمان لم ينس «أخاه» لأمّه، فأسند إليه مهمّة جديدة إذ عيّنه جابياً لصدقات «كلب» و

«بلقين».

وانطوى عليّ على جراحه فليس فى الأفق ما يُبشّر بخير.

حوادث الزمن الثالث

استهلّ عثمان حُكمه بتمكين بنى أُميّة من مقاليد الحكم، وتسنّم مروان بن الحكم أرفع المناصب حتّى كأن خاتم الخلافة فى يده يحكم ما يشاء؛ وفى عهد عثمان تصاعدت وتيرة الفتوحات وراحت الجيوش الإسلاميّة تسيح فى الأرض شرقاً وغرباً؛ وكنوز الغنائم تتدفّق ليكون طريقها إلى بنى أُميّة وبعض الصحابة الذين وجدوا فى سياسة عثمان ما يُشبع طموحاتهم وأطماعهم فى المال والثراء.

وفى مقابل هذا نجد صفحات تضجّ بالمآسى فيما يحتجّ بعض الصحابة على ظاهرة الانحراف التى لم يعد السكوت عنها ممكناً.

إنّ المتأمّل فى ما عاناه الصحابى المظلوم أبو ذر الغفارى على أيدى الأوغاد من بنى أُميّة سوف يلمّ بصورة مصغرة عن عمق المحنة التى عصفت بالإسلام والأُمّة، بل وحتّى الأجيال القادمة؛ كما إنّ المتوقّف عند مشهد أبى ذر حبيب محمّد صلّى الله عليه وآله وهو يُضرَب بقسوة ويُهان فى «المدينة» عاصمة الإسلام سوف يتذكّر ولا رَيب معاناته فى مكّة يوم كانت الكعبة تضجّ بالأوثان وكان الوثنيّون ينهالون على «جُندَب بن جُنادة» وقد هتف: أن لا إله إلاّ الله.. محمّد رسول الله؛ وسوف يكتشف المرء أنّ الذين كانوا يضربونه فى مكّة قد عادوا مرّة أخرى يجلدونه فى يثرب بعد أن تلبّسوا ثوب الإسلام كُرهاً وزوراً.

الدين والدنيا. معادلة الصراع

ها هو أبو ذر يعود من الشام مُنهَكاً أرهقه الجلّادون سيراً، وهو الشيخ الذى أنهكته السنون والأيام من قبل.

عاد إلى المدينة ... غريباً وحيداً، لم يستقبله أحد.. إنّها أوامر مروان «الخليفة الفعلىّ» للبلاد...

لم يجد عثمان مع أبى ذر حلاًّ إلاّ أن يقتله أو ينفيه ليموت وحيداً...

لقد بلغ الارهاب ذروته، فلم يخرج لتوديع أبى ذر إلاّ علىّ وأخوه (عقيل) وابناه (الحسن والحسين) والصحابى الجليل عمار بن ياسر ...أمّا الآخرون فقد خافوا سطوةَ مروان.. وجاء مروان ثائراً يتهدّد ويتوعّد الذين تمرّدوا على إرادة الحاكم..

كان الحسن يُحدّث أبا ذر، عندما صرخ مروان:

أيهاً يا حَسَن! ألا تعلم أنّ أمير المؤمنين نهى عن كلام هذا الرجل؟! فإن كنتَ لا تعلم فاعلم!

ولم يجد علىّ بن أبى طالب ردّاً مناسباً سوى أن ضرب بالسوط بين أُذنَى راحلة مروان فولّى مذموماً مدحوراً.

وبدأت مراسم توديع صحابىٍّ آمن بالله ورسوله، وطوى سنوات عمره مجاهداً الذين أشركوا والذين فى قلوبهم مرض.

تقدّم علىّ.. شدّ بيده على يد صاحب رسول الله وقال:

يا أبا ذر، إنّك غضبتَ لله.. إنّ القوم خافُوكَ على دُنياهم وخِفتَهُم على دينك، فاترُكْ فى أيديهم ما خافوكَ عليه، واهرَب منهم بما خِفتَهم عليه، فما أحوَجَهُم إلى ما منعتَهم وما أغناك عمّا منعوك، وستعلم مَنِ الرابحُ غداً، والأكثرُ حُسَّداً، ولو أنّ السماواتِ والأرضين كانتا على عبدٍ رَتْقاً ثمّ اتّقى اللهَ لَجعلَ اللهُ له منها مَخرَجاً. يا أبا ذر، لا يؤنسْك إلاّ الحقّ، ولا يوحشك إلاّ الباطل.

وتقدّم عقيل ليسجّل تضامنه قائلاً:

ما عسى أن نقول يا أبا ذر، أنت تعلم أنّا نحبّك وأنّك تحبّنا، فاتقِّ الله فإنّ التقوى نجاة، واصبِر فإنّ الصبر كرم. واعلَمْ أنّ استثقالَك الصبر من الجزع، واستبطاءَك العافية من اليأس، فدع اليأس والجزع.

وقال الحسن مصبّراً:

يا عمّاه، لولا أنّه لا ينبغى للمودِّع أن يسكت، وللمُشيِّع أن ينصرف.. لَقصُر الكلام وإن طال الأسف ... فضَعْ عنكَ الدنيا بتذكّر فراقها..

وشدّة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها، واصبِر حتّى تلقى نبيّك صلّى الله عليه وآله وهو عنك راضٍ.

وقال الحسين كلمته التى تنضح احتقاراً للدنيا، وتمجيداً للدين والكرامة:

يـا عمّـاه، إنّ الله قـادر أن يغيّر مـا قـد ترى، واللهُ كلَّ يومٍ فى شأن. وقـد منعك القومُ دُنياهم ومنعتَهم دِينكَ، فما أغناكَ عمّا منعوك، وأحوجهم إلى ما منعتَهم، فاسألِ اللهَ الصبر والنصر..

وتقدّم عمار يودّع صاحبه بكلمات هى مزيج من الحزن والغضب قائلاً:

لاـ آنس اللهُ مَن أوحشك، ولا آمن مَن أخافك، أما واللهِ لو أردتَ دُنياهم لآمنوك، ولو رضـيتَ أعمالهم لأحبّوك. وما منع الناس أن يقولوا بقولـك إلاّـ الرضـى بالـدنيا والجزع من الموت، ومـالوا إلى السـلطان جماعتهم، والمُلك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم ومنحهم القوم دُنياهم. فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

وبكى أبو ذر.. فَجَّرت كلمـات الوداع دموعه، حرّكت كوامن الجراح فى قلبه المُـترع بـالحزن.. تصـفّح بعينيه الغـارقتَين بالـدموع وجوه مودِّعيه كأنّه يريد أن يرتوى منها ويتزوّد بها ذكرياتٍ تُعينه على وحشة الأيّام القادمة، قال أبو ذر:

رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة.. إذا رأيتُكم ذكرتُ بكم رسول الله.. مالى بالمدينة سَـكَن ولا شـجن غيركم ... إنّى ثَقُلتُ على عثمان بالحجاز، كما ثقلتُ على معاوية بالشام، وكرِه أن أُجاور أخاه وابن خاله بالمِصـرَين ... فسيَّرنى إلى بلدٍ ليس لى به ناصـر ولا دافع إلاّ الله، وما أُريد إلاّ الله تعالى وما أخشى مع الله وحشة.

وراح أبو ذر يجرّ خُطاه المتعبة إلى منفاه فى الرَّبذَة.. تلك البُقعة الجرداء الملتهبة من دنيا الله.

ترك هذا الإجراء التعسّفىّ من لَدُن حكومة عثمان جرحاً لا يندمل فى قلوب المؤمنين.. وغضباً مكبوتاً سوف ينفجر بعد حين، ولسوف يبقى ضريح أبى ذر فى تلك الصحراء علامة استفهام كبرى فوق رؤوس الذين لم يتحمّلوا صوته ... صوت المقهورين والمحرومين.

اندلاع الثورة

تململت الأمّة الإسـلاميّة ... غضـبت لكرامتها المهدورة، واستيقظ الضمير المسلم بعد أن أدركت الجماهير أنّها لم تعد سوى سِلعة فى أيـدى الحاكمين، وأنّها جزءٌ من أملاك قريش وبالتحديـد تلك الأُسـرة المتغطرسـة والشـجرة الملعونة فى القرآن التى تُدعى ب «بنى أُميّة».

وشـعر بعض الصحابة الذين ما انفكّوا يقاتلون تحت رايات الفتح الإسلامى لتحرير الأُمم المقهورة.. أنّ الجهاد الحقيقى هو فى المدينة المنورة بإزالة تلك الطُغمة الظالمة التى استبدّت بالحكم فقهرت العباد، وعاثت فى البلاد.

وهكذا بدأت المعارضة الشعبية والواسعة فى كل البلاد الإسلامية باستثناء الشام حيث يحكم معاوية؛ وينفذ سياسته الداهية فى تشويش الأدمغة ... بدأت المعارضة همساتٍ وتساؤلات وكلمات لاذعة.. ثمّ أخذت بالانفجار، فى العاصـمة ذاتها إذ رفع لواءها صـحابة النبىّ صلّى الله عليه واله بعدما شهدوا بأمّ أعينهم ما يجرى على الإسلام من مصائب تهدّده بالفناء والزوال.

مصرع عثمان

تفاقمت الأوضاع بشكل يُنذر بوقوع كارثة، فقد تمادت أجهزة الخلافة بالقمع.. وأرهبت بشكل لم يسبق مثيل كلَّ من حاول الاعتراض على سياسة الحُكم الماليّة.

وقد وصل التذمّر حدّاً جعل عبدالرحمن بن عوف الذى يقف وراء وصول عثمان إلى سدّة الحكم، جعله يُعرب عن ندمه العميق قائلاً:

لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ لما ولّيتُ عثمان شِسْعَ نَعلى.

وتمتم عبدالرحمن فى اللحظات الأخيرة من حياته وهو على فراش الموت:

عاجِلوه.. عاجِلوه قبل أن يتمادى فى مُلكه.

وكانت آخر وصاياه أن لا يُصلّى عليه عثمان.

وتصاعدت وتيرة المعارضة فى الشهور الأخيرة من حياة عثمان، وما أكثر ما سمع الناس «أمَّ المؤمنين» عائشة تهتف بالمسلمين قائلة: اقتُلوا نَعثلاً فقد كفر.

ولوّحت مرّة بقميص النبىّ صلّى الله عليه وآله وصاحت:

هذا قميصُ رسول الله لم يَبْلَ وعثمانُ قد أبلى سُنّته.

ولم تكن المعارضة تمثّل تياراً واحداً، بل جمعت تحت لوائها تيارات عديدة والتقت فيها بواعث عديدة، فهناك الغاضبون لحِرمانهم من بعض الامتيازات، وهناك الطامعون بالخلافة منذ أن نفخت الشورى فى روحهم أنّهم أهلٌ لها، وهناك الجماهير المتذمّرة التى وجدت نفسها مهدورة الكرامة، وهناك الضمير الإسلامىّ الحىّ الذى يُمثله أجلّاء الصحابة ابتداءً بأبى ذرّ الغفارى وعبدالله بن مسعود وعمّار بن ياسر..

وفى كلّ تلك التيارات التى هزّت الأمة الإسلامية من الأعماق، يقف علىّ بن أبى طالب موقفه الفريد فى تفادى الكوارث التى تُنذر بوقوع الانفجار والدمار؛ واستطاع الإمام أن يكتسب ثقة الجميع بما فى ذلك عثمان نفسه، أمّا زوجة عثمان فقد كانت تؤمن إيماناً عميقاً أن علياً عليه السّلام هو وحده الذى سيُجنّب عثمان الوقوع فى الهاوية لو التزم عثمان نصائح الإمام؛ وبالرغم من كلّ هذا فلم يكن عثمان ليرتاح إلى علىّ ابداً.. لقد أصبح عثمان مجرّد أداة فى يد مروان.

ومن المؤسف أنّ عثمان لم يَرْعَ حرمة الخلافة حتّى فى تهجّمه على مناوئيه، وصدرت منه ألفاظ نابية لا تليق ليس بمركزه فحسب، بل وبشيخوخته أيضاً.

الحصار الأول

حاول الإمام أكثر من مرّة توجيه الأحداث بعيداً عن الكارثة القادمة، ودَفْع المعارضة والمؤسسة الحاكمة إلى جادّة الصواب، وفى كلّ مرّة يبرز مروان ليُحبط تلك المساعى الخيّرة من خلال مواقفه الهابطة التى تنمّ عن حقد أعمى، وعن نفسية ملوّثة وعقليّة خاوية.

وهكذا تدفّق الثوار من كلّ حَدب وصوب، ولم يعد هناك من طريق سوى الثورة.

وفى مطلع ذى القعدة بدأت وفود الثائرين بالوصول إلى عاصمة البلاد.

فقد وصل كلٌّ من مالك الاشتر ومعه ألف من الثوار فى أربع فرق، ووصل حكيم بن جبلة العبدى ومعه مئة وخمسون ثائر.

ووصلت جموع المصريّين التى ناهز عددها الألفَين، وأحدقت الجماهيرُ الغاضبة بقصر عثمان وقدّمت مطاليبها العادلة.. وهى:

العودة إلى سياسة النبىّ فى العطاء والتى تنهض على مبدأ المساواة وإلغاء الامتيازات التى سنّها عمر بن الخطّاب، وجيّرها عثمان لصالح قبيلته.

تطهير المؤسسة الحاكمة من العناصر الفاسدة وفى طليعتهم مروان بن الحكم.

الحدّ من أطماع الأمويين واحتكار المناصب لصالحهم.

وقف الإجراءات الكيفية التى يمارسها الولاة إزاء رعايا الدولة، والحدّ من صلاحيات الحكام فى التصرّف بالاموال العامّة.

وتجاهل عثمان مطاليب الثائرين، وتأزّم الوضع واتّخذ التجمّع الجماهيرى الضخم شكل الحصار؛ وانقطعت سُبل التفاهم بين عثمان والثوار.

وفى تلك اللحظات الحسّاسة استنجد الطرفان بالإمام علىّ للتدخّل قبل أن يحدث ما لا تُحمد عُقباه.

ولبّى الإمام رغبةَ الجميع وقَبِل الوساطة، فانطلق يشقّ طريقه إلى قصر الخلافة واجتمع بعثمان.

بدأ الإمام حديثه مع عثمان فقال ناصحاً:

النـاسُ ورائى وقـد كلّمونى فيـك.. ووالله مـا أدرى مـا أقول لـك وما أعرف شـيئاً تجهله.. ولا أدلّك على أمرٍ لا تعرفه ... فالله الله فى نفسك فإنّك والله ما تُبصر من عَمى، وما تعلم من جهل، وإنّ الطريق لَواضحٌ بيّن..

وذكّره الإمام بخطر مروان.. فقال:

لا تكُن لمروان سَيّقةً يسوقك حيث يشاء.

وأضاف فى حديثه إلى أنّ الولاة يسيئون سياسة الناس وينسبون ذلك إلى عثمان:

إنّ معاوية يقتطع الأمور دونك فيقول للناس هذا أمر عثمان.. فيبلغك ولا تُغيّر على معاوية.

ولقد حثّت «نائلة» زوجَها عثمان على الإصغاء إلى نصائح علىّ، فهو وحده الذى يمكنه أن يقنع الثوّار بالعودة، لهذا قال عثمان صادقاً:

يا أبا الحسن، ائتِ القومَ فادعُهُم إلى كتاب الله وسنّة نبيه.

قال الإمام مشترطاً:

نعم.. إن اعطيتَنى عهدَ الله وميثاقه على أنّك تَفى لهم بكلّ ما أضمنه عنك.

أجاب عثمان:

نعم.

وأخذ علىّ عليه السّلام العهود على «الخليفة الخائف» بإصلاح الأمور، وخرج علىّ يبشّر الجماهير المحتشدة، وعلت الهتافات من كلّ صوب:

ما وراءك؟

فأجاب الإمام:

بل أمامى ... تُعطون كتابَ الله وتُعتبون من كلّ ما سخطتم.

وفى هذه الكلمات أوجز الإمام كلّ مطالبهم التى ثاروا من أجل تحقيقها...

وتساءل زعماء الثورة:

أتضمن ذلك عنه؟

فقال علىّ عليه السّلام:

نعم.

رَضِينا.

وهكذا تقرّر اجتماع بعض زعماء الثائرين بعثمان لتحرير ما أعلن هو بنفسه.

وهذه صيغة التعهد كما وردت فى كتب التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبدالله عثمان أمير المؤمنين..

لِمَن نَقِم عليه من المؤمنين والمسلمين..

إنّ لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنّة نبيه صلّى الله عليه وآله.

يُعطى المحروم.

ويُؤمَن الخائف.

ويُرَدّ المنفىّ.

ولا تجمر البعوث «لا تبقى مرابطة فى أرض العدوّ».

وتوفر الفيء.

وعلىّ بن أبى طالب ضمين المؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء فى هذا الكتاب.

الشهود: الزبير بن العوّام / طلحة بن عبيدالله / سعد بن أبى وقاص / عبدالله بن عمر / زيد بن ثابت / سهل بن حُنَيف / أبو أيوّب الأنصارى / خالد بن زيد. وقد حرّر الكتاب فى ذى القعدة سنة ۳۵ ه.

ونصح الإمام علىّ عثمانَ بن عفان بأن يواجه الجماهير شخصيّاً ويعلن على الملأ العام سياسته الجديدة.

ونهض عثمان ليواجه الجماهير، وفى قلبه عزم على أن يعود إلى جادّة الصواب:

سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: مَن زلّ فلْيَتب...

وأنا أوّل من اتعظ.. فإذا زللتُ فلْيأتِ أشرافُكم فليردّونى برأيهم.. فوالله لو ردّنى إلى الحق عبدٌ لاتّبعته، وما عن الله مذهب إلّا إليه...

وأشرقت وجوه الجماهير بالفرحة والأمل...

وخرج الإمام علىّ فتحدّث إلى الوفد المصرى الذى فضّل العودة إلى دياره بعد أن حمل نسخة من كتاب عثمان.

وهنا تدخّل مروان فأجهض كلّ تلك المساعى الطيبة ... إذ سطّر كتاباً باسم الخليفة ومهره بخاتم الخليفة وسلّمه إلى غلام الخليفة!

وأركبه جملاً ـ تعود ملكيّته للخليفة المغلوب على أمره؛ وقد بلغ من خُبث مروان أنّه طوى الكتاب ووضعه فى أُنبوب مصنوع من الرصاص، ووضع الأنبوب فى قارورة، ووضع القارورة فى قِربة ملأى بالماء ... وقال للغلام:

حُثّ السير حتّى تصل مصر فتسلّمه إلى عبدالله بن سعد.

وتشاء الأقدار أن يكتشف الوفد المصرىّ وهو فى طريق العودة إلى دياره.. المبعوثَ المشبوه، وبعد تفتيش دقيق عثر أحد أعضاء الوفد على انبوبة الرصاص وفيها كتاب ينضح بالدم والموت:

أمّا بعد..

فإذا قدم عليك عمرو بن بديل فاضرِب عُنقه واقطع يدَى ابن عديس وكنانة وعروة، ثمّ دَعْهم يتشحّطون فى دمائهم حتّى يموتوا.. ثمّ أوثِقهم إلى جذوع النخل.

وثارت ثائرة الوفد المصرى الذى قرّر العودة إلى المدينة والاطاحة بعثمان، توجّه الوفد المصرى إلى علىّ الذى ضمن «الخليفة»؛ وشعر علىّ بالغضب وهو يتأمّل كتاب عثمان وأوامره بتصفية زعماء الوفد..

وانطلق الإمام إلى قصر عثمان، وقد فوجئ عثمان بالكتاب وأقسم أنّه لا يعلم منه شيئاً، وأنّه لم يكتبه ولم يأمر بكتابته ولكنّه اعترف قائلاً:

أمّا الخط فخطّ كاتبى.. والختم خاتمى..

وكان لابدّ من اتّهام أحد بِحَبْك هذه المؤامرة.. فسأل علىّ:

فمن تتّهم..

لقد انفتحت أمام عثمان فرصة رائعة.. للتحقيق فى الأمر، ومن ثمّ الثأر لكرامته التى أهدرها مروان بتصرّفاته الحمقاء.. ولكنّنا نجد عثمان ومع بالغ الأسف يجيب دون رويّة قائلاً:

أتّهمكَ واتّهم كاتبى!!

ونهض علىّ غاضباً.. وشعر بأنّ دوره كوسيط قد انتهى وأنّ عثمان قد مات.. منذ زمن.. منذ الأيام التى سلّم فيها عثمان أموره إلى مروان وراح ينقاد وراءه.

تمتم علىّ بحزن:

ما يُريد عثمان أن ينصحه أحد.. اتّخذ بطانة غش ليس منهم أحد إلّا وقد تسيّب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذلّ أهلها.

الحصار الثانى

تدهورت الأوضاع بسرعة مثيرة، وهتف المصريون بعثمان ولوّحوا بالكتاب:

يا عثمان، أهذا كتابك؟

وأنكر عثمان ذلك وأقسم.

فصاح المصريون:

هذا شرّ، يُكتَب عنك بما لا تعلم، مثلك لا يليق بالخلافة.. فاخلع نفسَك عنها.

أجاب عثمان وقد سدّ جميع أبواب السلام:

ما كنتُ لأنزع قميصاً سربلنيه الله!

وهكذا فُرض الحصار مرّة أخرى، وتأزمت الأحداث وقد أوشك الوضع على الانفجار.

وتقدّم شيخ قد هدّته السنون من أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وآله، وناشد عثمانَ بإطفاء نار الفتنة باعتزاله الخلافة والحكم، وفيما هو يحاور عثمان انطلق سهم فأصاب من الشيخ الصحابى مقتلاً فهوى شهيداً.. وانفجر الوضع وتعالت هتافات الجماهير بتسليم القاتل، ورفض عثمان الاستجابة كعادته قائلاً:

لم أكن لأقتل رجلاً نصرنى..

وفى فورة غضبٍ اندفعت الجماهير باتجاه باب القصر فأحرقته..

ووقعت عدّة اشتباكات عنيفة ... وممّا دفع بالأمويين إلى القتال ومواجهة الجماهير بالعنف أخبارٌ عن زحف قوّات عسكرية من الشام باتّجاه المدينة؛ ومع كلّ هذا فقد تخلّى مروان عن «خليفة» وفرّ مع بعض الأمويين وتركوا عثمان يواجه مصيره المحتوم وحيداً.. ولقى عثمان مصرعه تحت ضربات المهاجرين والأنصار، وهكذا أُسدل الستار على حياة «الثالث».. الذى تُرك ثلاثة أيام بلا دفن، وتضاربت الأنباء حول غسله ورفضت الجماهير فيما بعد دفنه فى مقبرة البقيع فدُفن كما أجمعت مصادر التاريخ فى بقعة تدعى «حش كوكب» كان اليهود يدفنون فيها موتاهم، وإذا كان لمعاوية فضلٌ على عثمان فهو فى هدم الحائط الذى يفصل بين «البقيع» و «حش كوكب»! وإلحاق الأخيرة بمقبرة المسلمين.

صفين.. سقوط الحضارة

أنَزَلنى الدهرُ حتّى قيل معاوية وعلى!

موقف أمة

لخّص الإمام علىّ الحوادث التى انتهت بمقتل عثمان فى حديثه مع بعض الثائرين قائلاً:

إنّ عثمان استأثر فأساء الأثَرَة، وجَزِعتهم فأسأتُم الجَزع، ولله حكمٌ واقع فى المستأثر والجازع.

كما وأوجز سيرة عثمان فى خلافته بقوله:

إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حِضْنَيه (من كان سيره تكبّراً) بين نَثيله (الروث) ومُعتلفه (موضع العلف).. وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمةَ الإبل نبتةَ الربيع، إلى ان انتكث عليه فَتْلُه، وأجهز عليه عَمَلُه، وكَبَتْ به بِطنتُه.

وأعقب مصرع عثمان أن عمّت الفوضى المدينةَ المنورة، واندفعت الجماهير إلى منزل الإمام علىّ تطالبه بتحمّل مسؤوليّاته فى الحكم

والخلافة فى واحد من أكثر المنعطفات التاريخيّة حسّاسيّة وخطورة.

ولكنّ الإمام رفض بشدّة، وهتفت الجماهير تستنجد به:

يا أبا الحسن، إنّ هـذا الرجل قد قُتِل ولابُدّ للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحقّ بهذا الأمر منك ... لا أقدمَ سابقة، ولا أقرب من رسول الله.

فقال الإمام:

لا تفعلوا، ولا أفعل، فإنّى لكم وزير، خير لكم من أمير.

وتشبّثت الجماهير به كما تتشبّث بطوق النجاة:

أنت لنا أمير.

فقال الإمام:

لا حاجة لى فى أمركم ... أيّها الناس أنا معكم، فمن اخترتم رضيتُ به.

وأحدقت به الجماهير من كلّ صوب وقد زادهم إصرارُه على الامتناع إصراراً على التشبّث به، وهتف الإمام مرّة أخرى:

دعونى والتمسوا غيرى..

وأردف مشيراً إلى أنّ زمن الفتن قد بدأ:

إنّا مستقبلون أمراً له وجوه.. وله ألوان، لا تثبت له العقول، ولا تقوم له القلوب.

وارتفع صوتٌ مخلص من بين الجماهير يناشد الإمام:

ألا ترى ما حدث فى الإسلام؟

ألا تخاف الفتنة؟

ألا تخاف الله؟!

وهنا سكت الإمام ... وحبست الجماهير أنفاسها؛ فقال:

إنّى إن أجبتُكم ركبتُ فيكم ما أعلم، وإن تركتونى فإنّما أنا كأحدكم.. بل أنا مِن أسمعِكم، وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم.

فردّت الجماهير بحماس:

ما نحن بمُفارقيك حتّى نبايعك!

وأخيراً أعلن الإمام استجابته، وأشار إلى المسجد البقعة التى صنعت تاريخ الإسلام من قبل:

إن كان لابدّ من ذلك ففى المسجد ... فبيعتى لا تكون خُفية.. ولا تكون إلّا عن رضى المسلمين وفى ملأ جماعتهم.

وفى اليوم التالى كان المسجد الجامع يموج بالجماهير التى احتشدت لمبايعة «علىّ...»

ولو قُدّر للمرء أن يرى مشـهداً واحـداً من ذلك اليوم العظيم عندما هبّت الجماهير تبايع انساناً رأت فى ملامحه وجه المنقذ.. رأت فيه الشـمس التى أشـرقت بعد ليالى الزمهرير الطويلة لرأى رجالاً ونساءً وأطفالاً صغاراً.. وقد أشرقت الوجوه تنتظر لحظات العهد الجديد.. ولرأى أيضاً شيوخاً قد هدّتهم السنون والأيام ولكنّهم تحاملوا على انفسهم فجاءوا يعاهدون عليّاً...

وجاء علىّ فى الصباح وقد أشرقت الشمس وغُمرت المدينة بالنور والدفء.. كان يرتدى قميصاً وعمامة من خزّ.. يحمل فى يده نعلَيه.. يتوكّأ على قوسه.

وفى يوم الثامن عشر من ذى الحجة ارتقى علىّ المِنبر ليواجه الجماهير المحتشدة:

أيّها الناس: إنّى كنت لأمرِكم كارهاً.. فأبيتم إلّا أن أكون عليكم.. رضيتم بذلك؟

وعلت هتافات الأمّة:

نعم.. نعم.. نعم.

فرفع الإمام طرفه إلى السماء وقال:

اللهمّ اشهَدْ عليهم.

وفى فرح عارم بـدأت مراسم البيعـة.. وامتـدّت أولّ يـد وكانت شـلّاء لتعاهد عليّاً على الوفاء.. وتدافعت الجماهير تبايع عليّاً، وأشـرقت وجوه الفقراء والمقهورين ... لقـد بدأ عهد جديد ... عهد تتنفّس فيه العدالة مِلء رئتيها.. واحتلفت الأمّة بهذا اليوم السـعيد ليكون لها عيداً.. وبدأت كلمات الفرح والثناء والمجد تنثال لتملأ أُذن الزمان.. إذ انبرى ذو الشهادتَين خزيمة بن ثابت ليسجّل شهادته أمام الناس والتاريخ والأجيال:

مـا أصـبنا لأمرنـا غيرك.. ولاـ كـان المنقلب إلاّـ إليـك؛ ولئن صـدقنا أنفسـنا فيك لأنت أقـدم الناس إيماناً.. وأعلم الناس بالله.. وأوّل المؤمنين برسول الله.. لك ما لهم.. وليس لهم ما لك..

ونهض الحصابى صعصعة بن صوحان فقال وهو يرى أجمل منظر فى الإسلام:

والله يا أمير المؤمنين.. لقد زيّنتَ الخلافة وما زانتك، ورفعتَها وما رَفَعَتك، ولَهِيَ إليك أحوج منك إليها.

واندفع مالك الاشتر يهتف بحماس الجندى المخلص للإسلام:

أيّهـا الناس، هـذا وصـيّ الأوصـياء.. ووارث عِلم الأنبياء.. العظيم البلاء، الحَسَن العناء.. الـذى شَـهِد له كتابُ الله بالإيمان، ورسولُه بجنّة الرضوان.. مَن كَمُلت فيه الفضائل.. ولم يشكّ فى سابقته وعِلمه وفضله الأواخر والأوائل..

ولم يتخلّف عن البيعـة الشـعبية سوى مجموعـة تُعَـدّ بالأصـابع فى طليعتهـا: سـعد بن أبى وقّاص، أُسامـة بن زيـد، أبو سـعيد الخـدرىّ، وعبـدالله بن عمر بن الخطاب، وحسّان بن ثابت الشاعر. ولم يتعرّض الإمام إلى أىّ منهم، وترك لهم الخيار بحرّيـة.. فقد أُحضـر سـعد إلى المسجد ليابيع ولكنه رفض ذلك قائلاً:

لا.. حتّى يبايع الناس.. والله ما عليك منّى بأس.

فقال الإمام:

خلّوا سبيله..

وقال عبدالله بن عمر بن الخطاب مثل قول سعد.

فقال الإمام:

ائتِنى بكفيل.

قال:

لا أرى كفيلاً.

فقال الإمام:

دعوه.. أنا كفيله.

وفى كـلّ الأـحوال.. فـإنّ مبايعـة الإمام علىّ كانت تعنى الإعراض عن مباهـج الـدنيا والترف وحياة القصور، ولم يكن هـذا يسـيراً على الذين انغمسوا فيها وغرقوا فى أوحالها حتّى الحضيض.

العهد الجديد

وبصـعود أمير المؤمنين علىّ عليه السّـلام المنبر بـدأ فصل جديـد من التاريـخ.. لقـد بـدأ فصل الربيع وزمن العدالة والمساواة والأخوّة.. الجماهير والتاريخ والضـمائر الإنسانيّة تُصـغى إلى كلمات تتدفّق من روح عظيمة.. روح انصـهرت فى بوتقة النبوّات..ها هو علىّ ربيب

محمّد صلّى الله عليه وآله يعلن انبعاث الرسالة،ها هو يخاطب التاريخ والحضارة والإنسانية:

ألا لا يقولنّ رجالٌ منكم قد غَمَرَتهم الدنيا فاتخذوا العقار.. وفجّروا الأنهار.. وركبوا الخيول الفارهة.. واتّخذوا الوصائف الروقة.. فصار ذلك عليهم عاراً وشَناراً.. إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون.. فينقمون ذلك ويستنكرون.. ويقولون حرمنا ابنُ أبى طالب حقوقنا...

وأردف معلناً القاعدة التى تنهض عليها حقوق المواطن المسلم:

وأيّما رجل استجاب لله ورسوله.. فصدّق ملّتنا ودخل فى ديننا، واستقبل قبلتنا.. فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله.. والمال مال الله..

يُقسَّم بينكم بالسوية..

لا فضل لأحدٍ على أحد؛ وللمتّقين غداً أحسن الجزاء وفضل الثواب..

واضاف قائلًا:

وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدُوا علينا.. فإنّ عندنا مالاً نقسّمه فيكم، ولا يتخلفنّ أحد منكم، عربىّ ولا أعجمى.. كان من أهل العطاء أو لم يكن.. إذا كان مسلماً حرّاً إلّا حضر..

أقول قولى هذا وأستغفر اللَه العظيم لى ولكم.

هل هى مصادفة أن يتولى علىّ بن أبى طالب عليه السّلام الخلافة فى الثامن عشر من ذى الحجّة الحرام.. وهل تذكّر بعض صحابة النبىّ صلّى الله عليه وآله يوم غدير خم عندما هبط جبريل يعلن ولاية علىّ على كلّ مسلم ومسلمة وكلّ مؤمن ومؤمنة.

إنّ الفترة التى أعقبت رحيل النبىّ صلّى الله عليه وآله وإقصاء الإمام علىّ عن حقّه هى من أكثر الفترات مأساويّة، والتأمّل فى مواقف الإمام وتصريحاته ابّان تلك الفترة يكشف عن عمق المحنة التى عاشها وصىّ النبىّ ازاء قريش التى حاربت النبىّ صلّى الله عليه وآله ما يقارب ربع قرن من الزمن.. وهى مدّة الدعوة والدولة، وأقصت وصيّه عن حقّه فى القيادة مدّة ربع قرن أيضاً.

حوادث يوم السبت (۱۹ ذى الحجة ۳۵ ه)

بويع الإمام علىّ عليه السّلام يوم الجمعة.. وتجلّت سياسته فى اليوم التالى.. فإذا علىّ هو صوت العدالة الإنسانيّة، وهو الإسلام الذى لا يعرف أفضليّةً لعربىّ على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى.

أصدر الخليفة الحقّ أمره إلى الصحابى عمّار بتوزيع «العطاء» على الناس:

قم يا عمّار إلى بيت المال، فأعطِ الناس ثلاثة دنانير لكلّ إنسان، وادفع لى ثلاثة دنانير.

وانطلق عمّار وأبو الهيثم وجماعة من المسلمين إلى بيت المال.. ومضى علىّ إلى مسجد قباء أوّل مسجد فى تاريخ الإسلام.. مضى ليصلّى..

وهناك فى البيت الذى يضمّ خزائن الدولة حدث ما لا يستوعبه العقل البشرىّ.. لقد وجد عمّار أنّ بيت المال يحوى ثلاثمئة ألف دينار، وكان أهل العطاء مئة ألف إنسان؛ ولم يبق دينار واحد!!

والتفت عمّار إلى مَن حوله وفى عينيه بريق وخشوع قائلًا:

جاء واللهِ الحقُّ من ربكم.. واللهِ ما علم بالمال ولا بالناس، وإنّ هذه لآية ... وجبت عليكم بها طاعةُ الرجل.

من هنا مر الشيطان

إذا كانت سياسة العطاء قد كشفت عن الوجه الإنسانى والإسلامى لعلىّ بن أبى طالب عليه السّلام، فإنّها قد فجّرت فى الوقت نفسه

الأحقاد والأطماع.. وفوجئ بها بعض المقرّبين إليه.. جاء سهل بن حنيف وهو من أصحابه فقال مذهولاً:

يا أمير المؤمنين.. هذا غُلامى بالأمس.. وقد أعتقتُه اليوم.

فقال الإمام:

نُعطيه كما نعطيك!

وأثارت هـذه السياسـيـة حفيظـة عدد من الزعامات فى طليعتهم: طلحة بن عبدالله.. الزبير بن العوّام.. عبدالله بن عمر.. مروان بن الحكم.. سعد بن العاص. وبدأت أوّل التكتّلات المناهضة لعلىّ وسياسـته؛ وقد امتنع هؤلاء عن حضور توزيع العطاء.. وبذلك سجّلوا أوّل استياء ضـد العدالـة. وتبلورت المعارضة لتجتمع تحت لواء المصالح والأطماع والأحقاد الدفينة.. وفى المسـجد جاء الوليد بن عقبة وهو يمثل التكتّل الأموى لمساومة علىّ فقال:

يا أبا الحسن، إنّك قد وترتَنا جميعاً، أمّا أنا.. فقد قتلتَ أبى يوم بدر، وخذلت أخى يوم الدار بالأمس.

وأمّا سعيد (بن العاص) فقتلتَ أباه يوم بدر، وكان ثور قريش.

وأمّا مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه..

ونحن إخوانك ونظراؤك.. ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصـبناه من المال فى عهـد عثمان.. وأن تقتل قَتَلة عثمان، وإنّا إن خفناك تركناك والتحقنا بالشام.

قال الإمام واضعاً النقاط على الحروف:

أمّا ما ذكرتم من وترى إيّاكم فالحقُّ وَتَركم.

وأمّا وضعى عنكم ما أصبتم، فليس لى أن أضع حقَّ الله عنكم ولا عن غيركم.

وأمّا قَتَلة عثمان، فلو لزمنى قتلُهم اليوم لقتلتُهم أمس، ولكن لكم علَىّ إن خفتمونى أن أؤمنكم، وإن خفتكم أن أُسيِّركم.

وعندما انتهت مراسم توزيع العطاء، انطلق علىّ عليه السّلام إلى العمل فى بئر الملك.

وقد رفض كلٌّ من طلحة والزبير وعبدالله بن عمر استلام حقوقهم من العطاء، وجاءوا يطلبون الاجتماع بعلىّ.

قال طلحة حانقاً:

هذا منكم أو من صاحبكم؟

أجاب عمّار:

هذا أمره، لا نعمل إلّا بأمره.

استأذنوا لنا عليه.

ما عليه آذن، هو فى بئر الملك يعمل.

من المدهش أنّنا نرى هؤلاء الثلاثة يستمرّون فى غيّهم فيمتطون خيولهم متوجّهين إلى «بئر الملك».

كان الجوّ حاراً.. وكان علىّ يعمل فى الأرض مع أجير له وقد تصبّبا عرقاً! قال طلحة متضايقاً:

إنّ الشمس حارّة، فارتفع معنا إلى الظلّ..

واستجاب الإمام إلى رغبتهم، فجلس إليهم تحت ظلال شجرة؛ ابتدأ طلحة الحديث فقال:

لنا قرابة من نبىّ الله وسابقة جهاد.. وإنّك أعطيتنا بالسويّة.. ولم يكن عمر ولا عثمان يفعلان ذلك.. كانوا يفضّلوننا على غيرنا.

أجاب الإمام مذكّراً إيّاهم بطريقة أبى بكر:

فهذا قسم أبى بكر.. وهذا كتاب الله فانظُروا ما لكم من حقٍّ فخذوه.

أجاب الزبير:

فسابقتُنا.

قال أمير المؤمنين موجّهاً خطابه لطلحة والزبير:

أنتما أسبق منّى؟

لا.. فقرابتنا منه؟

أقرب من قرابتى؟

لا.. فجهادنا؟

أعظم من جهادى؟

لا.

واللهِ ما أنا فى هذا المال وأجيرى إلّا منزلة سواء.

ومع كلّ هـذه الحجج المقنعـة.. إلّا أنّ طلحة والزبير كما يبدو قد ركبا رأسَيهما ورفضا الانصياع للأمر الواقع.. لقد بنيا مجدَيهما على تلك الامتيازات الوهميّة وراحا ينظران إلى كلّ شىء من خلال تلك الأوهام.

وشهد اليوم التالى انفجاراً فى المسجد عندما حاول عمّار الدخول معهما فى حوار.. ورفض طلحة بأسلوب عنيف الحديث صارخاً:

أعرف أنّ فى كلّ واحد منكم خطبة..

وأساء عبدالله بن الزبير الأدب فى خطابه لشيخ الصحابة عمّار فأُخرج من المسجد.. وهنا غادر الزبير المسجد منزعجاً وتأزّمت الأوضاع، وقـد ذرّ الشـيطان قرنَيه.. وأُحيط الإمام عِلماً بحركة الانشـقاق.. والتّى تتخذ من القِدَم فى اعتناق الإسـلام ذريعةً للحصول على امتيازات دُنيويّة زائلة..

وشعر الإمام بالغضب.. وغادر منزله إلى المسجد فألقى خطاباً مريراً انتقد فيه هذه الظاهرة المؤسفة قائلاً:

يا معشر المهاجرين والأنصار! أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم؟ بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين..

وارتفعت نبرة الإمام وهو يهتف بغضب:

أنا أبو الحسن.. ألا إنّ هذه الدنيا التى تتمنّونها وترغبون فيها.. وأصبحَتْ تُغضبكم وتُرضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذى خُلقتم له، فلا تغرّنكم.. وأمّا هـذا الفىء فليس لأحد اثرة.. فقد فرغ الله من قِسْمته.. وهو مال الله وأنتم عباد الله المسـلمون.. وهذا كتاب الله، به أقررنا وله أسلمنا وعهدُ نبينا بين أظهُرنا..

ونزل الإمام وصلّى ركعتين.. وبعث عمّاراً لاستدعاء الزبير وطلحة لاجراء حوار معهما.

قال علىّ لهما:

نشدتُكما الله! هل جئتمانى طائعَين للبيعة ودعوتمانى إليها وإنّى كاره؟

نعم.

غير مجبورَين؟

نعم.

فما دعاكما إلى ما أرى؟

أعطيناك بيعتنا على أن لا تقضى فى الأمور دوننا.. ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمتَ.

وشـعر الإمام بالغضب.. لقـد تمكّن الشـيطان من نفخ روحه فيهما، وقديماً رفض إبليس السـجود لآدم قائلاً: أنا خير منه خلقتَنى من نارٍ وخلقتَه من طين!

قال علىّ وهو يحاول قهر الشيطان فيهما:

لقد نقمتُما يسيراً وأرجأتما كثيراً.. فاستغفِرا الله يغفر لكما..

ألا تخبرانى.. أدفعتُكما عن حقٍّ واجبٍ لكما فظلمتُكما إيّاه؟

معاذَ الله.

فهل استأثرتُ من هذا المال بشيء؟

معاذ الله.

أوَقَع حكمٌ أو حدٌّ من المسلمين فجهلتُه أو ضعفت فيه؟

معاذ الله.

وانطلقت صرخة مظلوم ظلّت مكبوتة ربع قرن:

فما الذى كرهتما من أمرى حتّى رأيتما خلافى؟

خلافك عمر فى القسمة.. إنّك جعلتَ حقّنا فى القسم كحقّ غيرنا، وسوّيت بيننا وبين غيرنا.

وذكّرهم الإمام بأنّ السابقة والجهاد فى الإسلام لا يمكن أن تكون قاعدة تنهض عليها الامتيازات الدنيويّة؛ إنها إذا خلصت لله فستكون المجد والمستقبل الحقيقى للمسلم فى الآخرة:

أمّا قولكما «جعلتَ فيئنا وأسيافنا ورماحنا سواءً بيننا وبين غيرنا»، فقديماً سبق الإسلام قوم، ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلا فضّل لهم رسول الله بالقسم ولا آثر بالسبق، والله موفٍ السابق المجاهد يوم القيامة..

ووصل الحوار إلى طريق مسدود، لقد وُضعت الأصابعُ فى الآذان.. ولم يَعُد للمواعظ معنى فى زمن يبرق المعدنُ الأصفر فيخلب العقول والأبصار.

الطريق إلى البصرة

تسارعت الأحداث.. وشهد ليل المدينة رجالاً ـ ملثّمين يجتمعون فى الظلام يتآمرون للاطاحة بالحكم الجديد.. لِوأد الشمس التى أشرقت بعد ليالى الشتاء الطويل. لقد تحوّل عثمان بين ليلة وضحاها إلى مظلوم بعد أن كان ظالماً..ها هو طلحة الذى أنفق أموالاً طائلة وقدّم مساعدات كبيرة من أجل الإطاحة بعثمان، يتهيّأ للفرار إلى مكّة من أجل المطالبة بدم عثمان، لقد أصبح عثمان مظلوماً.. لأنهم فقدوا بغيابه الدنيا الجميلة.. دنيا القصور والامتيازات والليالى الجميلة!

ووصلت الحوادث منعطفاً خطيراً عندما دخلت عائشة زوجة النبىّ «أم المؤمنين» قلب الأحداث لترفع فيما بعد راية التمرّد على الشرعيّة؛ حتّى عائشة التى كانت بالأمس تهاجم عثمان بقسوة باتت تهتف بظُلامته اليوم!!

وهنا يتوقّف التاريخ مذهولاً ... فإذا بالذين قتلوا عثمان فى الخامس عشر من ذى الحجّة الحرام يرفعون لواء المطالبة بدمه من علىّ.

وهكذا وجد مروان بن الحكم أنّ الظروف تسير فى صالحه ففرّ إلى مكّة ومعه بنو أمية، فاجتمعت الأحقاد والأطماع والمصالح تحت راية عائشة.. لا حبّاً بعثمان ولكن كُرهاً لعلىّ. وأنفق الامويون أموالاً طائلة لتجهيز جيش المتمرّدين الذى تحرّك صوب البصرة بقيادة عائشة زوج النبىّ صلّى الله عليه وآله.

وأُصيب البصريون بالدهشة وهم يرون عائشة وطلحة والزبير قد جاءوا إلى البصرة للطلب بدم عثمان الذى قُتل فى المدينة!

وفى البصرة حدثت اشتباكات عنيفة مع أنصار الإمام.. وقع فيها عشرات القتلى والجرحى.

وتحرّك الإمام بقوّته باتّجاه العراق، وعسكر فى منطقة «ذى قار» ينتظر وصول الإمدادات من الكوفة، غير أن الوالى وكان عثمانىَّ الهوى قد وقف إلى جانب عائشة، وراح يحثّ الناس على نكث البيعة وعدم مساندة الإمام؛ وقد وصل الحسن بن علىّ وعمّار لحثّ الكوفيّين على الالتحاق بجيش الإمام، وظلّ الموقف على ما هو عليه، ولم تُجْدِ خطابات نجل الإمام ولا صاحبه فى تغيير الموقف، وهنا

وصل مالك الأشتر على جناح السرعة، فاقتحم قصر الإمارة بالقوّة، وطرد الوالى الذى غادر القصر مذموماً مدحوراً.

العجل الجديد

وفى يوم الخميس العاشر من جُمادى الأولى سنة ۳۶ ه شهدت منطقة «الخريبة» من أرض البصرة حشوداً عسكريّة هائلة، وكان جيش الإمام علىّ يضم ثمانين «بدريّاً» € ومئتين وخمسين صحابياً شاركوا فى بيعة الرضوان. وتقدّمت عائشة على جَمَل وعن يمينها وشمالها الزبير وابنه عبدالله وطلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص! وقد حاول الإمام علىّ عليه السّلام التوصّل إلى حلّ سِلمىّ، وذكّر الزبير بن العوام بحديث لرسول الله. وكاد الزبير أن يتراجع فى اللحظات الأخيرة قبل اشتعال المعركة لولا تدخّل ابنه عبدالله الذى اتّهم أباه بالجُبن..

وعرض الإمام مرّة أُخرى التحاكم إلى كتاب الله وحَقْن الدماء، ولكن المتحمّسين للحرب فى جيش عائشة أمطروا الشاب الذى حمل القرآن فى منطقة القتال بوابل من السهام، فسقط شهيداً كما سقط بعض الجرحى فى جيش الإمام.

هناك دعا علىّ عليه السّلام ابنه محمّد بن الحنفيّة وسلّمه راية الجيش العظمى وكانت راية رسول الله، وقال:

يا بُنىّ هذه راية ما رُدَّت قط ولا تُرَدّ.. يا أبا القاسم!

قد حملتُ الراية وأنا اصغر منك..

وكثّف جيشُ الناكثين هجومه بالسهام.. فأصدر الإمام أمره بالهجوم العام.. واشتبك الفريقان فى معارك ضارية، وتحوّل الجَمَل فى نوبة من نوبات الجنون الوثنىّ إلى عِجل جديد.. إذ دارت حوله أعنف الاشتباكات، وقد كان الهودج مصفّحاً بالحديد. وهتف الإمام وهو يرى عنف المعارك حوله:

اعقُروا الجمل وإلّا فَنِيَت العرب.

وبسقوط الجمل خفّت حدّة المعارك، وبدأت جبهات الناكثين تتزلزل بشدّة تحت وقع ضربات المحاربين.

وأمر على ربيبه محمّدَ بن أبى بكر أن يُبادر إلى الهودج ويحمى أخته! وحسم جيش علىّ المعركة فى ساعات معدودة.

وفُوجئت عائشة بيدٍ تمتدّ داخل الهودج فصاحت:

من أنت؟!

أبغضُ أهلك إليك.

ابن الخثعمية؟!

نعم.. ولم تكن دون أمّهاتك.

لعمرى بل هى شريفة.. دع عنك هذا.. الحمد لله الذى سلّمك.

قد كان ذلك ما تكرهين.

يا أخى لو كرهتُه ما قلتُ الذى قلته.

كنت تحبّين الظفر وأنّى قُتلت؟

كنت أحبّ ذلك فاكفُف.

وجاء الإمام فقرع الهودج بالرمح وقال بلهجة فيها غضب وحزن:

يا حُمَيراء! بهذا أوصاكِ رسول الله؟!

أجابت عائشة:

يا ابن أبى طالب، مَلَكْتَ فاصْفَح.

فقال الإمام وهو يُطلق آهة حرّى:

والله ما أدرى متى أُشفى غيظى؟

أحين أقدر على الانتقام فيقال لى لو غفرتَ؟!

أم حين أعجز فيُقال لى لو صبرت؟

غير أنّ الإمام لا يجد سوى الصبر سلاحاً.. والصبر سلاح الأنبياء:

بلى أصبر، فإنّ لكلّ شىء زكاة، وزكاة القدرة العفو!

والتفت الإمام إلى محمّد بن أبى بكر وقال:

شأُنك بأُختك لا يدنو منها أحد سواك.

لقد أسفرت معارك الجمل الضارية عن سقوط ما يقارب من خمسة وعشرين ألف مقاتل.. ستة آلاف من جيش علىّ عليه السّلام.

وقد لقى طلحة مصرعه خلال احتدام المعارك، وتضاربت الأنباء حول انسحاب الزبير من أرض المعركة، هل كان قبل احتدام المعارك أو بعدها، وفى كلّ الأحوال فقد اغتيل فى «وادى السباع»، وكانت دوافع القاتل الأطماع، فقد حمل رأسه وسيفه وجاء يبشّر عليّاً عليه السّلام.. وتناول الإمام سيف الزبير وتمتم أسفاً:

سيفٌ أعرفه.. طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله..

وأردف الإمام مخاطباً «ابن جرموز»:

والله ما كان ابن صفيّة جباناً ولا لئيماً، ولكنّه الحين ومصارع السوء.

قال ابن جُرموز وهو يتطلّع إلى المكافأة:

الجائزة يا أمير المؤمنين؟

وانبعثت فى أعماق الإمام نبوءة قديمة:

أما إنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: بَشِّر قاتلَ ابن صفيّة بالنار.

وأصدر الإمام علىّ عليه السّلام عفواً عاماً إثر توقف العمليات الحربية، ومنع أخذ غنائم الجيش المهزوم سوى ما استُخدم للحرب من أسلحة ووسائط نقل.

وطالب بعضهم الإمام بالسبى فرفض ذلك، فقالوا مستنكرين:

كيف تحلّ لنا دماؤهم وتُحرّم علينا سبيُّهم؟!

فاجاب الإمام:

كيف تحل لكم ذرّية ضعيفة فى دار هجرة الإسلام؟!

وعندما رأى إصرارهم قال:

فاقرعوا على عائشة إذن.

فهتفوا عندها مستغفرين:

نستغفر الله يا أمير المؤمنين!

لقد كشفت معركة الجمل والحوادث التى تلتها عن مستويات متدنّية من الوعى الدينى.. وعمّقت التيارات المتناقضة التى استَشْرَت فى فِكر الأمّة وضميرها، ومهّدت الطريق أمام كارثة صِفّين.

حوار مع الأصفر

ودخل الإمامُ بيت المال، ورأى دنان الذهب والفضة.. فقال:

يا صفراءُ غُرّى غيرى! وألقى نظرة فاحصة وقال: فرّقوه خمسمئة خمسمئة. وأخذ الإمام نصيبه أُسوة بجنوده، فجاء رجل وقال:

كنتُ شاهداً بقلبى وإن غاب عنك جسمى.

فأعطاه علىٌّ عليه السّلام نصيبه وانصرف هو صفرَ اليدين حامداً الله إذ لم يحصل على شىء من الفىء..

ولمّا عوتب على التسوية فى العطاء قال:

أتأمرونى أن اطلب النصرَ بالجَور فيمن وليت عليه؟! والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجمٌ فى السماء نجماً؛ لو كان المال لى لسوّيتُ بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله.

وألقى الإمام نظرة حزن على جثث القتلى، ومرّ بطلحة وهو جثة هامدة، وقد غمر الظلام الاشياء.. فقال بأسى:

لقد أصبح «أبو محمّد» بهذا المكان غريباً! أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب!

مشهد فى البصرة

وخلال مكوثه فى البصرة.. توجّه الإمام إلى منزل أحد أصحابه وهو العلاء بن زياد الحارثى ليعوده فى علّة ألمّت به.. وتأمّل الإمام سعة الدار فقال لصاحبه وهو يحاوره:

ما كنتَ تصنع بسعة هذه الدار فى الدنيا، وأنت إليها فى الآخرة كنت أحوج؟

ويجيب الإمام ليفتح الطريق أمام الأغنياء الصالحين فيقول:

بلى إن شئتَ بلغتَ بها الآخرة: تَقرى بها الضيف، وتَصل فيها الرَّحِم، وتُطلع منها الحقوق مطالعها.. فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة.

قال العلاء بصوت واهن وقد وجد له فرصة ليشكو إليه أخاه:

يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخى عاصماً.

قال الإمام:

ما له؟

لَبِس العباءة وتخلّى عن الدنيا.

وانبرى الإمام ليواجه ظاهرة التطرّف فى الزهد:

علَىّ به.

لقد حدّد علىّ عليه السّلام موقفه من الغِنى، فياتُرى ماذا سيكون موقفه مع الذين يتركون الدنيا ويديرون وجوههم لها؟

جاء عاصم أخو العلاء.. كان يرتدى عباءةَ صوف رثّة.

قال الإمام بلهجة فيها عتب خفيف:

يا عُدىَّ نفسه! لقد استهام بك الخبيث..

أما رحمتَ أهلك وولدك!

أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها؟

أنت أهون على الله من ذلك.

نظر عاصم إلى ثياب أمير المؤمنين ربّما كانت أكثر رثاثة من ثيابه، فقال:

يا أمير المؤمنين، هذا أنت فى خشونة ملبسك وجُشوبة مأكلك.

قال الإمام وهو يبيّن له كيف يكون الحاكم القدوة:

وَيْحَك، إنّى لستُ كأنت.. إنّ الله تعالى فرض على أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضَعَفة الناس؛ كلا يتبيّغَ الفقير بفقره.

العاصمة الجديدة

كان الإمام يدرك أن الخطر القادم يكمن فى الشام.. حيث يمارس معاوية بن أبى سفيان سياسته المشبوهة فى تلويث الأدمغة، وتزوير الحقائق، وتوجيه الرأى العام الجهة التى تخدم مصالحه وتحقّق طموحاته الشخصية. ومن هنا اختار الإمام الكوفة عاصمة جديدة للدولة الإسلاميّة؛ لموقعها الاستراتيجى ووفرة مواردها الاقتصادية.

غادر أمير المؤمنين عليه السّلام مدينة البصرة بعد أن عيّن عليها والياً جديداً هو عبدالله بن عباس، وفى البصرة قال كلمته الخالدة:

أرضكم قريبة من الماء، بعيدة عن السماء!

هى كلمة أثارت التساؤلات لدى سامعيها عقوداً من الزمن.

واتجه الإمام إلى الكوفة فهمس وقد لاحت من بعيد باسقات النخيل:

وَيْحكِ يا كوفان؛ ما أطيب هواءَكِ وأغذى تربتك؛ الخارج منكِ بذنب، والداخل إليك برحمة؛ لا تذهب الأيام والليالى حتّى يجىء إليك كلّ مؤمن، ويُبغِض المقامَ بك كلُّ فاجر، وتعمرين حتّى إنّ الرجل من أهلك ليُبكّر إلى الجمعة فلا يلحقها من بُعد المسافة..».

وقد وصل الإمام الكوفة يوم الاثنين الثانى والعشرين من رجب سنة ۳۶ ه.

وعُرض على الإمام أن ينزل فى قصر الامارة فرفض قائلاً:

هذا قصر الخَبال.. لا حاجة لى فى نزوله.

واتّجه إلى المسجد الأعظم فصلّى فيه ركعتين.. وفى يوم الجمعة ألقى الإمام خطاباً وعظيّاً حذّر فيه المؤمن من الدنيا، جاء فيه:

أُوصيكم عباد الله بتقوى الله..

احذَروا من الله ما حذّركم من نفسه.. وأشفِقوا من عذاب الله، فإنّه لم يخلقكم عَبَثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدى.. قد سمّى آثاركم وعَلِم أسراركم، وأحصى أعمالكم، وكتب آجالكم.. فلا تَغُرّنكم الدنيا فإنّها غَرارة لأهلها، والمغرور مَن اغترّ بها، وإلى فناءٍ ما هى، وإنّ الدار الآخرة هى دار القرار.

ارهاصات الحرب

شهدت دمشق بعد مصرع عثمان بدء الاستعدادات على قدمٍ وساق للقيام بأوسع تمرّد ضد الشرعيّة، وتصاعدت وتيرة النشاط بعد حرب الجمل وما تمخّض عنها من جراح فى أعماق الأمّة.

وعرف معاوية من أين ستؤكل الكتف، فرفع قميص عثمان ليكون أفضل ذريعة لإعلان الحرب على الإمام.

وبدأ معاوية نشاطاً محموماً فى تعبئة كلّ ما يُمكن تعبئته ضدّ الإمام علىّ عليه السّلام، وكثّف من مراسلاته للشخصيّات والزعامات فى مختلف مناطق الدولة الإسلاميّة.

وفى تلك الفترة تبلورت فى ذهن معاوية فكرة التحالف مع عمرو بن العاص ضدّ أمير المؤمنين عليه السّلام.

وكان الإمام علىّ عليه السّلام قد أرسل مبعوثه جرير بن عبدالله البجلى إلى معاوية لأخذ البيعة، واجتمع جرير بمعاوية وسلّمه رسالة الإمام وقد جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان.

أمّا بعد..

فقد لزمك ومَن قِبَلك من المسلمين بيعتى؛ وأنا بالمدينة وأنتم بالشام.

لأنّه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمانَ.. فليس للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنّما الأمر فى ذلك للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل مسلم، فسمَّوه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج من أمرهم أحدٌ بطعن فيه أو رغبة عنه رُدّ إلى ما خرج منه؛ فإن أبى على أتباعه غير سبيل المؤمنين، ولاّه الله ما تولّى، ويُصْلِه جهنّم وساءت مصيراً.

فادْخُل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، فإنّ أحب الأمور فيك وفيمن قِبَلك العافية. فإن قَبِلْتَها وإلاّ فانْذَنْ بحرب.

وقد أكثرتَ فى قَتَلة عثمان، فادْخُل فيما دخل فيه الناس، ثمّ حاكِم القوم إلىّ، أحمِلكَ وإيّاهم على ما فى كتاب الله وسُنّة نبيّه..

فأمّا تلك التى تريدها، فإنّما هو خُدعة الصبى عن الرضاع.

كان معاوية يهدف إلى كسب المزيد من الوقت ريثما يصل عمرو بن العاص.

على أن ذلك لم يمنع معاوية من الاحتفاء بجرير وإكرامه ومحاولة كسبه إلى جانبه.

ويبدو أنّ سياسته قد نجحت، فقد تأخّر جرير فى عودته من مهمّته.

وفى الكوفة شعر بعضهم بالقلق ازاء ما يجرى فى الشام، فأشاروا على الإمام بالاستعداد وإعلان الحرب؛ غير أنّ الإمام لم يجد ذلك مناسباً لأنّه سوف يئد كلّ مشروع خيّر.. فقال:

إنّ استعدادى لحرب أهل الشام وجريرٌ عندهم، اغلاق للشام وصرف لأهله عن خير أرادوه؛ ولكن وقّت لجرير وقتاً لا يُقيم بعده إلاّ مخدوعاً أو عاصياً، والرأى عندى مع الأناة.

الحلف الدنس

وصل عمرو بن العاص دمشق ودخل مع معاوية على الفور فى مفاوضاتٍ مكشوفة انتهت بتحالفٍ دَنِس.

لقد عرف كلٌّ منهما صاحبه، فمعاوية يحتاج إلى عقل داهية وشخصيّة يمكنها أن تُلبِس الاشياء غير ثوبها الحقيقى، شخصية متلوّنة وُصولية، انتهازيّة لا تعرف شيئاً مقدّساً. وعمرو بن العاص يحتاج هو الآخر إلى مَن يُمكّنه من تحقيق طموحاته وأطماعه، وبكلمة واحدة يصنع له دنياه.

لنتأمّل فى جانب من حوار الرجلَين:

قال معاوية:

يا أبا عبدالله، طرقَتنا فى هذه الأيام ثلاثة أمور، ليس فيها ورد ولا صدر.

ما هنّ؟

أمّا أولهن: فإنّ محمد بن حذيفة كسر السجن وهرب إلى مصر فيمن كان معه من أصحابه، وهو من أعدى الناس لنا.

وأمّا الثانية: فإنّ قيصر الروم قد جمع الجنود ليخرج إلينا ليحاربنا على الشام.

وأمّا الثالثة: فإنّ جريراً قدِم رسولاً لعلى بن أبى طالب يدعون إلى البيعة له أو إيذان بحرب.

لنرى الآن اجوبة ابن العاص، ورؤيته فى معالجة المشكلات، وكيفية نفوذه لتحقيق غاياته، قال عمرو:

أمّا ابن حذيفة.. فما يغمّك من خروجه من سجنه فى أصحابه، فأرسِلْ فى طلبه الخيل، فإنَ قدرت عليه فذاك، وإن لم تقدر عليه لم يضرّك.

وأمّا القيصر.. فاكتُب إليه تُعلِمه أنّك تردّ عليه جميع من فى يديك من أسرى الروم، وتسأله المصالحة.

وامّا علىّ بن أبى طالب..

سكت عمرو لحظات ليسدّد سهامه فقال:

إنّ المسلمين لا يساوون بينك وبينه..

قال معاوية مقاطعاً:

إنّه مالأ على قتل عثمان، وأظهر الفتنة، وفرّق الجماعة.

وتظاهر عمرو بتأييد تخرصات معاوية وقال:

إنّه وإن كان كذلك.. فليست لك مثل سابقته وقرابته.

وبرقت فى عينَى عمرو الأطماع فأردف قائلًا:

ولكن ما لى إن شايعتُك على أمرك حتّى تنال ما تريد؟

أعطى معاوية صاحبه صكّاً مفتوحاً:

حُكمك.

قال عمرو وقد سال لعابه لمملكة الفراعنة:

اجعَلْ لى مصر طُعمةً ما دامت لك ولايةٌ.

سكت معاوية.. إنّ مفاوضه يريد مصر لُقمة خالصة له لا يشاركه فيها أحد، قال بعد لحظات صمت:

لو شئتُ أن أخدعك خدعتُك.

قال عمرو وقد برقت عيناه كثعلب:

ما مثلى يُخدَع.

أُدنُ منى أُسارِّك.

وأرهف عمرو أذنيه لمعاوية الذى قال:

هذه خدعة، هل ترى فى البيت غيرى وغيرك؟!

وأردف:

أما تعلم أنّ مصر مثل العراق؟

قال عمرو بخبث:

غير أنها إنّما تكون لى إذا كانت لك الدنيا، وإنّما تكون لك إذا غلبتَ علياً.

وفى النهاية تمّت الصفقة، وتأسّس الحلف الدنس بين رجلَين جمعتهما المصالح والأطماع.

وفى جوّ محموم حرّر الطرفان صيغة الاتفاق، وأصبحت مصر شَعباً ومقدّراتٍ وثروات (طُعمةً) لعمرو بن العاص بموجب ذلك الاتّفاق.

وبدأ الطرفان منذ ذلك التاريخ التخطيط لمواجهة الخطر القادم من العراق.

ولقد حاول الإمام علىّ إسداء النصح إلى عمرو بن العاص قبل أن ينغمس فى دنيا معاوية، فبعث إليه برسالة هذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله علىّ أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص..

أمّا بعد..

فإنّ الدنيا مَشغلة عن غيرها، صاحبها منهوم فيها، لا يُصيب منها شيئاً إلّا ازداد عليها حِرصاً، ولم يستَغْنِ بما نال عما لا يبلغ، ومن وراء ذلك فِراقُ ما جمع؛ والسعيد مَن اتعّظ بغيره، فلا تُحبِط عملَك بمجاراة معاوية فى باطله، فإنّه سَفِه الحق واختار الباطل ... والسلام.

غير أنّ ابن العاص كان قد سقط فى حبائل الشيطان ولم يعد يبصر أمامه شيئاً سوى «مصر».

وهكذا بدأ التحضير لتفجير الصراع مع عليّ وفق خطّة مدروسة بعناية. ومن خلال الحوادث التى رافقت انفجار الاوضاع فى صفّين يبرز وجه عمرو بن العاص كعقلٍ مدبّر وسياسىّ ماكر؛ فقد أشار على معاوية بعد عودة مبعوث الإمام إلى الكوفة ألّا يُعلن نفسه خليفة أبداً، وأن يبذل قُصارى جهده فى إشاعة أكبر أُكذوبة فى تاريخ الإسلام، وهى مسؤولية علىّ عليه السّلام الكاملة عن مقتل عثمان؛ وأن المطالبة بدمه سوف توحّد الرأى العام فى الشام لصالحه.

وقد رتّب معاوية خطّة ماكرة فى كسب عليّة القوم فى الشام حتّى باتوا أكثر حماساً من معاوية نفسه فى مُناوأة أهل العراق ورفض خلافة الإمام علىّ عليه السّلام.

وفى هذا قال علىّ عليه السّلام فى إحدى المناسبات: «ألا وإنّ معاوية قادَ لُمّة من الغواة، وعمّس عليهم الخبر حتّى جعلوا نحورهم أغراضَ المنيّة». وراح ابن العاص يُطلق الأكاذيب تلو الأكاذيب ضدّ علىّ على طريقة كذِّب ثمّ (كذّب حتّى يصدّقك الناس)؛ حتّى راحت أكاذيبه تُزكم الأُنوف، ووصلت أخبارها العراق.. فقال علىّ عليه السّلام:

عجباً لابن النابغة!! يزعم لأهل الشام أنّ فىّ دُعابةً وأنّى امرؤٌ تِلعابة ...! لقد قال باطلاً.. ونطق آثماً.. أما وشرُّ القول الكذب إنّه ليقول فيكذب، ويَعِد فيُخلِف، ويُسأل فيبخل، ويَسأل فيلحف، ويخون العهد ويقطع الآل...

ويفلسف الإمام منهجه الأخلاقى وسيرة خصمه فيقول:

أمّا والله إنّى ليمنعنى من اللعب ذِكرُ الموت، وإنّه ليمنعه من قول الحقّ نسيان الآخرة..

ثمّ يفضح تحالفَ عمروٍ مع معاوية قائلاً:

إنّه لم يبايع معاوية حتّى شرط أن يؤتيه، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة.

وهكذا أوجز الإمام علىّ تحالف ابن العاص مع معاوية بعبارة بليغة: أنّها صفقة الدنيا مقابل الدين؛ ولقد باع عمرو بن العاص دينه بدنيا غيره.

وقد لجأ الكثير إلى معاوية.. لا حُبّاً به ولكن كرهاً لعلىّ وفراراً من وجه العدالة؛ غير مدركين أنّ العدل هو الأساس الذى ينهض عليه الرخاء والأمن الاجتماعى، «إنّ فى العدل سَعَة، ومَن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق».

الطريق إلى صفين

يشعر المرء وهو يستكشف حوادث تلك الحقبة التاريخيّة من الزمن بعمقِ التغيّرات النفسيّة والتحولات الفكريّة والاجتماعية التى ألمّت بالمجتمع الإسلامىّ والأمة آنذاك، والتى أدّت فيما بعد إلى ظهور تيّارات فكريّة متناقضة، ومن ثَمّ تنامى التيّار «السفيانى» إذا صح التعبير واستيلاؤه على مقدّرات الدولة الإسلاميّة، بل وانحرافه بالمسار الحضارى للإسلام منذ كارثة صفين.

يقول الإمام علىّ وهو يقسّم مجتمعه إلى خمسة أصناف ويصف زمانه:

«أيّها الناس.. إنّا قد أصبحنا فى دهرٍ عَنود.. وزمان كَنُود.. يُعدّ فيه المُحسن مسيئاً.. ويزداد الظالم فيه عُتوّاً.. ولا ننتفع بما عَلِمنا، ولا نَسأل عمّا جَهِلْنا، ولا نتخوّف قارعة حتّى تحلّ بنا..

والناس على أربعة أصناف:

منهم: من لا يمنعه الفساد فى الأرض إلّا مهانةُ نفسه وكلالة حَدّه..

ومنهم: المُصلِت لسيفه والمُعلن بِشَرّه والمُجلِب بخيله ورَجِله..

قد أشرط نفسه، وأوبق دِينه.. لحطامٍ ينتهزه، أو مِقْنَبٍ يقوده.. أو مِنْبر يَفْرعه.. ولبئس المَتْجر أن ترى الدنيا لنفسك ثَمَناً وممّا لك عند الله عِوضاً.

ومنهم: من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا..

قد طامن مِن شخصه وقارب من خَطْوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذّ سِترَ الله ذريعة إلى المعصية.

ومنهم: من أبعده عن طلب المُلْك ضُؤولةُ نفسه، وانقطاع سببه، فقَصَرَته الحال على حاله فتحلّى باسم القناعة، وتزيّن بلباس الزهادة..».

وهنا يأتى دور الصنف الخامس وهو الذى يمثّل الضمير المقهور فى أعماق الأمّة، فيقول عليه السّلام:

«وبقى رجال غضَّ أبصارَهم ذِكرُ المرجِع، وأراق دموعهم خوفُ المحشر، فهم بين شريد نادٍّ.. وخائف مقموع، وساكت مكعوم، وداعٍ مخلص؛ وثَكلانَ مُوجَع، قد أخملتْهمُ التقيّة وشملتهم الذلّة، فهم فى بحر أُجاج، أفواههم ضامزة (ساكنة) وقلوبهم قرِحَة، قد وَعظوا حتّى مَلّوا، وقُهروا حتّى ذَلّوا، وقُتِلوا حتّى قلّوا».

طبول الحرب

وصلت المراسلات بين الإمام ومعاوية إلى طريقٍ مسدود.. ودوّت فى دمشق طبول الحرب.. ولم يجد الإمام علىّ بدّاً من معالجة الانحراف بالقوّة، وسُمع أمير المؤمنين يقول وقد استنفد كلّ الوسائل السلميّة مع والى الشام الطَّموح:

...« ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينه.. وقلّبتُ ظهرَه وبطنه.. فلم أرَ فيه إلّا القتال أو الكُفر بما جاء به محمّد صلّى الله عليه وآله »....

وفى عاصمة الخلافة أعلن الإمام حالة النفير العام.. وتجمّعت الألوف وخرجت طلائع جيش الإمام إلى «النُّخيلة» التى أصبحت منطقة تحشّد عسكرية منذ ذلك التاريخ...

ولنحاول أن نتخيّل الإمام وهو يتقدّم من فرسه وقد وضع رجله فى الرِكاب.. فيتذكّر كلمات قالها سيدنا محمّد صلّى الله عليه وآله قبل أكثر من ثلاثين سنة.. رنا الإمام بناظرَيه إلى السماء.. إلى العالم اللانهائى، وردّد ذات الكلمات قائلاً:

«اللهمّ إنّى أعوذ بك من وَعثاء السفر.. وكآبة المنقلب.. وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد.. اللهمّ أنت الصاحب فى السفر، وأنت الخليفة فى الأهل..».

وهنا يضيف الإمام من بنات أفكاره لتنفتح «الباب» على المدينة، فيقول:

«ولا يجمعهما غيرُك، لأن المُستخلَف لا يكون مستصحَباً، والمستصحَب لا يكون مستخلَفاً».

فتتوحّد المسيرة التى ابتدأها رسول الله واستأنفها وصيُّه.. إنّها أخلاق محمّد صلّى الله عليه وآله تتألّق فى علىّ.. ومعانى رسالته تنبض فى مفردات أبدعها موسّس البلاغة فى دنيا العرب.

النخيلة

استخلف الإمام علىّ عليه السّلام على الكوفة الصحابىَّ أبا مسعود الأنصارى، واتّجه إلى النُّخيلة، وكان عمّار بن ياسر شيخ المهاجرين قد سبق الإمام إليها؛ ومن النخيلة بعث الإمام إلى ولاته على المدن والاقاليم الإسلاميّة بالقدوم.

وبدأت الحشود العسكريّة تتجمّع من مختلف الأقاليم، وفى طليعة من استجاب لدعوة الإمام مدينة البصرة، حيث لبّى الأحنف بن قيس نداء الإمام.

وفى النخيلة ألقى الإمام خطاباً أوضح فيه خطّته فى الزحف باتجاه الشام قائلاً:

الحمد لله كلّما وَقَب ليل وغسق.. والحمد لله كلّما لاح نجم وخفق.. والحمد لله غير مفقود الإنعام؛ ولا مُكافأ الإفضال.

أمّا بعد..

فقد بعثتُ مقدّمتى وأمرتُهم بلزوم هذا الملطاط (شاطئ الفرات) حتّى يأتيهم أمرى..

وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة (نهر الفرات) إلى شِرذمة منكم، موطّنين أكناف دجلة، فأُنهضهم معكم إلى عدوكم وأجعلهم من أمداد القوّة لكم.

وانطلقت مقدّمة الجيش تطوى المسافات، وكانت المقدمة تتألّف من ۱۲۰۰۰ مقاتل فى قوّتَين منفصلَتين يقوهما كلّ من زياد بن النضر وشُريح بن هانئ، وزوّدهما بتعليماته الحربية التى يغلب عليها استراتيجيّته فى الدفا وتفادى الاصطدام ما أمكن.

قال الإمام عليه السّلام وقد وقف القائدان أمامه باحترام:

ليسِتر كلُّ واحد منكم منفرداً عن صاحبه؛ فإن جمعَتْكُما حرب فأنت يا زياد الأمير.. واعْلَما أنّ مقدّمة القوم عيونهم، وعيون المقدّمة طلائعهم. فإيّاكما أن تسأما عن توجيه الطلائع.. ولا تسيرا بالكتائب والقبائل من لَدُن مسيركما إلى نزولكما إلّا بتعبيّةٍ وحذر، وإذا نزلتما بعدوٍّ أو نزل بكم، فلْيكن معسكركم فى أشرف المواضع؛ ليكون ذلك لكم حصناً حصيناً، وإذا غشيكم الليل، فحُفّوا عسكركم بالرماح والترسة، ولْيَليهم الرماة، وما أقمتم فكذلك فكونوا.. لئلّا يُصاب منكم غِرّة، واحرُسا عسكَركما بأنفسكما، ولا تذوقا نوماً إلّا غراراً ومضمضة، وليكن عندى خبركما، فإنّى ولا شىء إلّا ما شاء الله حثيث السير فى اثركما.. ولا تقاتلا حتّى تُبدأا أو يأتيكما أمرى إن شاء الله..».

ومرّت ثلاثة أيّام على تحرّك مقدّمة الجيش، وفى اليوم الثالث تحرّك جيش الإمام بكّل فيالقه التى ناهز عدد مقاتليها الثمانين ألفاً... حتّى إذا أطلّت على خرائب مدينة «بابل»، أمر الإمام بالاسراع فى اجتيازها قائلاً:

«إنّ هذه مدينة قد خُسف بها مراراً، فحرّكوا خيلكم، وأرخوا أعنّتها حتّى تجوزوا موضع المدينة، لعلّنا نُدرك العصر خارجاً منها». وفى مدينة «الرقة» عبر الإمام بجيشه نهر الفرات؛ وفى مكان يدعى سور الروم اصطدمت مقدِّمة جيشه بفرسان الشام يقودهم أبو الأعور السلمىّ؛ ووصلت أنباء ذلك للإمام علىّ، فأمر قائده الشجاع مالك الأشتر بالإسراع وقيادة المقدّمة.

واشتبك الفريقان إلى الليل...

وفى غمرة الظلام فضّل قائد مقدمة الشام الانسحاب والعودة إلى معاوية، وكانت جيوشه قد بسطت سيطرتها على مصادر المياه فى شواطئ الفرات فى وادى صفّين الفسيح؛ ويبدو من خلال ما ورد فى بعض المصادر التاريخية أنّ المنطقة التى احتلّتها كتائب من جيش معاوية كانت منطقة مشجّرة كثيفة، ما خلا طريق مرصوف بالحجارة يتوسّط تلك المنطقة المليئة بالأوحال؛ ومن هنا فإنّ احتلال ذلك الطريق يعنى السيطرة على منابع المياه، وهذا ما فعله جيش معاوية؛ فكشف بذلك عن أخلاقيّة هابطة فى مبادئ الحرب؛ عِلماً بأنّ الإمام وحتّى تلك اللحظة لم يُعلن الحرب، وكان يؤكّد على وجود فرصة للتفاهم وحلّ الأزمة بالطرق السِلميّة.

وصلت جيوش الخلافة وادى صفّين فوجدت قوّات معاوية قد احتلّت القرية وسيطرت على الطريق الوحيد الذى يؤدّى إلى ضفاف الفرات.

الظامئون

أرسل الإمام صعصعة بن صوحان وكان صحابيّاً جليل القدر إلى معاوية وحمّله رسالة شفهية قائلاً:

«إيتِ معاوية فقُل له: إنّا سرنا إليكم لنعذر قبل القتال، فإن قبلتم كانت العافية أحبَّ إلينا ... وأراك قد حلت بيننا وبين الماء، فإن كان أعجب إليك أن تدع ما جئنا له، ونذر الناس سقتتلون على الماء حتّى يكون الغالب هو الشارب، فَعَلْنا».

واجتمع معاوية مع أركان حربه للتدارس حول الموضوع، وسيطرت على الاجتماع روحٌ من الحقد الدفين والدناءة والغدر والقسوة.. باستثناء عمرو بن العاص الذى اعتبر خطوة معاوية خطوة حمقاء قائلاً:

أرى أن تُخلّىَ عن الماء؛ فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريّان.

غير أنّ معاوية الذى عُجنت روحه بالأطماع والغدر استجاب إلى آراء تنضح حقداً وانتقاماً.

وأدرك مُوفَد علىّ عليه السّلام أنّ معاوية سوف يشدّد قبضته على النهر.. فعاد إلى الإمام يُخبره.

وتمرّ الساعات بطيئة قلقة ... وقد استبدّ بجنود الإمام الظمأ.. وكان على مَن يريد الماء أن يقطع مسافة ۱۲ كم من أجل الحصول على

قطرات تطفئ لهيب الأعماق فى ذلك الصيف الملتهب.

ومرّت ثلاثون ساعة، وقد لاحت فى الأُفق ملامح الكارثة، وفى اللحظات الأولى من الفجر ألقى الإمام فى كتيبة مالك الأشتر المؤلّفة من الفرسان كلمات تتألّق بسالة:

قد استطعموكم القتال ... فأقِرّوا على مذلّة وتأخير محلّة.. أو رَوُّوا السيوفَ من الدماء تُروَوا من الماء..

ثم دوّت كلماته الخالدة:

فالموتُ فى حياتكم مقهورين، والحياة فى موتكم قاهرين!

وشنّ سلاح الفرسان هجوماً صاعقاً ودارت معركة ضارية، وبدأت خطوط العدوّ تتزلزل لعُنف الهجمات، واقتحم المهاجمون شواطئ النهر، وغمست خيول علىّ أقدامها فى المياه الباردة.

على. المجد الأخلاقى

أضاف علىّ بن أبى طالب نصراً أخلاقياً كبيراً إلى مجده العسكرى.. فأصدر أوامره إلى قوّاته المرابطة فى «الشريعة» بالتزوّد بالماء والانسحاب وفتح الطريق أمام جنود الخصم بارتياد النهر.

تلقّى معاوية نبأ هزيمة قوّاته بهلع، فلقد أصبح مصيره وطموحاته على كفّ عفريت؛ فاستدعى على الفور مستشاره ومعاونه عمرو بن العاص وقال له بقلق:

ما ظنُّك بعلىّ؟!

أجاب ابن العاص وهو يدرك تماماً أخلاقيّة الإمام علىّ:

ظنّى أنّه لا يستحلّ منك ما استَحْلَلْتَ منه.. لأنّه أتاك فى غير الماء.

وشهدت الطريق المرصوفة بالحجارة «السقّائين» من الفريقين وهم يتّجهون إلى شواطئ الفرات للتزوّد بما يلزمهم من المياه، وقد أحدثت مواقف الإمام الإنسانية أثراً معيّناً فى صفوف الشاميين، إذ شهدت ليالى صفين محاولات تسلّل من المواقع الشاميّة إلى معسكر الإمام. وفى كلّ الأحوال.. فالذين اختاروا الدنيا كانوا يتطلّعون إلى معاوية، أمّا الذين أرادوا الآخرة وسَعَوا لها سعيها فكانوا يجدون طريقهم على خطى علىّ عليه السّلام مع التأكيد على وجود المخدوعين وهم الغالبية فى جيش معاوية، ووجود الحمقى والأغبياء فى جيش الإمام، وكان هؤلاء يمثّلون شريحةً فاعلة لها شأنُها.

تقارير من قلب المعركة

عاد الهدوء المَشوب بالحذر مرّة أخرى إلى أرض صفّين.. ولم تحدث اشتباكات تُذكَر.

وجرت خلال تلك الفترة مراسلات بين الفريقَين لم تُسفر عن نتيجة؛ ومن الطبيعى أن تصطدم المطامع والأهواء بالمبادئ والقيم والدين الحقّ؛ ولهذا لم يجد الإمام حلاًّ مع هذا المتسلّط المتمرّد إلاّ الحرب أو الكفر بما جاء به محمّد صلّى الله عليه وآله كما عبّر عن ذلك الإمام فى مناسبة من الصراع المرير.

وخلال الفترة التى سبقت الأشهُر الحُرُم.. شهد وادى صفّين ما يقرب من ثمانين اشتباكاً محدوداً على مستوى الكتائب، وكان «القُرّاء» فى كلّ مرّة يتدخّلون لوقف القتال والبحث عن طريق سلمىّ لحلّ الصراع.

انسلخت الأشهر الحُرم، وأطلّ شهر صفر، وتمرّ الأيام، دون أن تلوح فى الأفق بوادر للحرب، ويبدو أنّ أصحاب الإمام قد استبطأوا قيادتهم فى إصدار الأوامر بالهجوم، وانتشرت شائعات حول شكّ الإمام فى مشروعيّة قتال «القاسطين» وقد ردّ الإمام على ذلك بقوله:

أمّا قولكم: أكُلَّ ذلك كراهيةَ الموت؟ فوالله ما أُبالى دخلتُ إلى الموت أو خرج الموت إلىّ، وأمّا قولكم شكّاً فى أهل الشام! فوالله ما

دفعتُ الحربَ يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى، وتعشوا إلى ضوئى، وذلك أحبُّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها.

وفى الغروب وقف جنديٌّ جهورى الصوت قريباً من معسكر القاسطين وهتف بأعلى صوته ناقلاً إنذار الإمام:

إنّا أمسكنا لتنصرم الأشهر الحُرُم.. وقد تصرّمت، وإنّا ننبذ اليكم على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين.

وأُعلنت فى المعسكرَين حالة التعبئة العامّة، واشتعلت النيران، ايذاناً بخوض حرب شاملة.

وما أن اشرقت شمس اليوم التالى حتّى كان الجيشان يقفان على أُهبة الاستعداد، وقد سيطرت حالة من الوجوم والرهبة. إنّ من يقف فوق الروابى المشرفة على الوادى الفسيح سوف يرى كتائب الجيشَين تصطفّ فى شكل خطوط قتاليّة، سيرى فى كلّ جيش سبعة خطوط، سيرى خطّين فى الجناح الأيمن، وخطّين فى الجناح الأيسر، وثلاثة خطوط فى القلب.

عيّن الإمام على سلاح الفرسان فى جيشه الصحابىَّ الكبير عمّار بن ياسر الذى لم تمنعه شيخوخته من الاشتراك فى المعارك بحماس المؤمن المجاهد الذى لا يساوره الشكّ فى عدالة قضيته.

وعيّن على المشاة عبدالله بن بديل، ودفع الراية العظمى إلى هاشم بن عتبة المرقال.

وفى جيش معاوية كان عمرو بن العاص يقود سلاح الفرسان، أما مسلم بن عقبة الذى اشتُهر فى التاريخ بمجرم بن عقبة.. فقد تصدّى لقيادة المشاة.

ولم يحدث اشتباك ذلك اليوم، ثمّ حدث اشتباك محدود فى صباح اليوم الذى تلاه.

وخرج فى يوم آخر عمّار بن ياسر يقود مجموعة من الفرسان، فتصدّى له عمرو بن العاص وفى يده راية سوداء وصاح:

هذا لواءٌ عقده رسول الله.

فعلّق الإمام قائلاً:

أنا أُخبركم بقصّة هذا اللواء: هذا لواء عقده رسول الله صلّى الله عليه وآله وقال: مَن يأخذه بحقّه؟ فقال عمرو: وما حقُّه يا رسول الله؟ قال: «لا تفرُّ به مِن كافر، ولا تقاتل به مسلماً».. ولقد فرّ به من الكافرين فى حياة رسول الله، وقد قاتل به المسلمين اليوم.

وخرج عبدالله بن بديل وكان من أفاضل أصحاب الإمام يقود مجموعة من فرسان العراق، فانبرى إليه أبو الأعور السلمىّ فى مثل ذلك من أهل الشام وجرت معارك بين الفريقَين، وفى تلك اللحظات والاشتباكات مستمرة قام عبدالله بحركة جريئة إذ ألهب ظهر حصانه بالسوط وشنّ هجوماً صاعقاً مخترقاً خطوط العدو ولم يتمكّن أحد من اعتراضه.. وكان هدفه اقتحام مقرّ القيادة؛ حتّى إذا وصل قريباً منها تعرّض إلى عشرات الصخور فسقط شهيداً.. ولقد أثار هجومه الجرىء إعجاب الجميع بما فى ذلك معاوية نفسه، إذ قال وهو يقف متأملاً جثمانه الطاهر:

هذا كبْش القوم.

فروسية

عرض الإمام علىّ عليه السّلام على معاوية وقد آلمه سقوط القتلى من الفريقين قائلاً: لِمَ نقتُل الناس بينى وبينك؟ ابرز إلىّ.. فأيّنا قتل صاحبه تولّى الأمر.

واستشار معاوية ابن العاص:

ما ترى؟

قال ابن العاص بخبث:

قد أنصفك الرجل.

فقال معاوية بحقد:

أتخدعنى عن نفسى، ولِمَ أبرز إليه ودونى «عكّ والأشعرون».

لقد كان معاوية يدرك تماماً بأنّ مواجهة علىّ عليه السّلام تعنى مواجهة الموت الأحمر المحتوم.

ويبدو أن معاوية قد أزعجه موقف ابن العاص وشكّك فى نواياه تجاهه، ولم يجد عمرو بدّاً ومن أجل إعادة المياه إلى مجاريها من أن يقول لمعاوية بعد أيام من البرود فى العلاقات:

سأخرج إلى علىّ غداً.

كان عمرو قد أعدّ عُدّته، وكان يعرف نقطة فى خصمه العظيم. إنّها تكمن فى مجده الأخلاقى الذى يستمدّه من معلّمه الأول.. وبرز عمرو بن العاص متحدّياً علياً:

يا أبا الحسن، أُخرُج إلىّ أنا عمرو بن العاص..

وخرج بطل الإسلام، وقد تألّق ذو الفقار فى قبضة الفارس الذى لا يُهزَم؛ وما أسرع أن زجّ ابن العاص بسلاحه السرّى! فكشف عن عورته وأظهر سوأته، ونجا من الموت المحقَّق!

وفرّ عمرو مذعوراً، وربّما مسروراً.

وتلقّى معاوية قائد فرسانه! بلهجة فيها تهكّم وسخرية قائلاً:

إحمَدِ اللهَ وسوداءَ إستك يا عمرو!!.

بدء الحرب الشاملة

تصاعدت حِدّة المعارك بين الفريقَين، وسرى شعور بالرهبة بعد أن أُشيع عن نيّة الإمام فى بدء الهجوم العام، فقد خطب عشيّة الهجوم قائلاً:

ألا إنّكم ملاقو القوم غداً بجميع الناس، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثِروا تلاوة القرآن، وسلوا الله الصبر والعفو، والقوهم بالجدّ..».

وفى الجانب الآخر ضاعف معاوية رواتب قبائل عكّ والأشعرين التى أقسمت على الصمود حتّى النفس الأخير.

أدّى الإمام صلاة الفجر فى لحظاته الأولى وقام بجولة لاستطلاع كتائب العدو، وأجرى تغييرات فى صفوف قوّاته. ولأوّل مرّة منذ اندلاع المعارك قاد الإمام سلاح الفرسان المؤلَّف من اثنى عشر ألف مقاتل فى هجوم مدمّر، ودوّت فى الفضاء هتافات: ألله أكبر.. وارتجّت الأرض تحت أقدام المحاربين.. وكانت خطّة الهجوم تقضى بالاندفاع الكاسح حتّى مركز القيادة، وقد تمكّن المهاجمون من تمزيق صفوف العدوّ، حتّى أن معاوية أمر بتجهيز فَرَسه للفرار بعد أن جرت الاشتباكات قريباً منه.

واستمرّت المعارك حتّى الليل، وقد أسفرت الاشتباكات العنيفة عن سقوط عشرات القتلى والجرحى؛ وفى طليعتهم الصحابىّ البطل عمار بن ياسر.

وفى صباح اليوم التالى استمر وقف القتال؛ لانتشال جثث القتلى ومواراتهم الثرى.

وفى عشية ذلك اليوم خطب الإمام أيضاً حاثّاً قوّاته على الاستبسال:

أيّها الناس، اغدُوا على مصافّكم، وازحفوا إلى عدوّكم، غُضّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقِلّوا الكلام، واثبتوا، واذكُروا الله كثيراً، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب رِيحُكم واصبِروا إنّ الله مع الصابرين.

وفى اليوم التالى اشتبكت الفيالق فى ملحمةٍ عظيمة، واندفع الجناح الأيسر فى جيش الشام فى هجوم عنيف لم يصمد له الجناح الأيمن فى جيش الإمام، فأمر الإمام أحد قادته بإسناد الجناح الأيمن، ودارت معارك رهيبة، وكلّف الإمام قائده الشجاع الأشتر بإعادة قطعاته إلى مواقعها، فنجح فى مهمته بعد أن قاد هجوماً جريئاً أجبر فيه العدوّ على التراجع.

كان الوقت أصيلاً عندما هدأت حدّة القتال.. وجاء الإمام فأنّب قوّاته فى الجناح الأيمن على تقهقرهم فى بدء المعركة، وأشاد باستعادتهم زمام المبادرة:

وقد رأيتُ جَولتكم، وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجُفاة الطغام وأعراب أهل الشام، وأنتم لَهاميم العرب، ويآفيخ الشرف، والأنف المقدَّم، والسِّنام الأعظم، ولقد شفى وحاوحَ صدرى أن رأيتُكم بأَخَرَة تحوزونهم كما حازوكم، وتُزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم حسّاً بالنصال، وشَجراً بالرماح، تركب أُولاهم أُخراهم كالإبل الهيم المطرودة تُرمى عن حياضها وتُذادُ عن مواردها!.

واشتعلت المعركة مرّة أُخرى، وعندما كانت الشمس تجنح للمغيب قاد الإمام بنفسه قوّاته فى هجوم كاسح، وكان هدفه احتلال مركز قيادة العدو، كان معاوية يراقب المعركة بذُعر وهو يرى تقدّم المهاجمين، فاستشار عَمرَو بن العاص قائلاً:

ما ترى؟

أجاب ابن العاص:

أرى أن تُخلى سرادقك.

وانسحب معاوية إلى مكان أكثر أمناً.

وما هى إلاّ لحظات حتّى وصل الإمام ومعه قوّاته فأطبقوا على مركز القيادة وحوّلوه إلى أنقاض، وغمر الأرضَ الظلام.. فتوقّفت المعارك.

وجىء إلى الإمام بأحد الأسرى، فقال الأسير متضرّعاً:

لا تقتلنى صَبراً.

فقال الإمام:

لا أقتلك صبراً، إنى أخاف الله رب العالمين.

وأردف وهو يحاول إضاءة قنديلٍ فى قلب أسيره:

خَلّوا سبيله...

وانطلق الأسير وقد هزّته المفاجأة.

الموت من أجل الخلود

اشتعلت المعارك مرّة أخرى، وكانت كفّة النصر تميل إلى جانب الحق، وشوهد الإمام وهو يقاتل ببسالة، وكانت أقوى ضرباته بعد مصرع عمار بن ياسر.

وهتف الإمام: مَن يُبايعنى على الموت؟

فتقدّم العشرات يبايعون الإمام على الموت الأحمر من أجل خلودٍ أخضر، حتّى وصل عددهم تسعاً وتسعين..

فقال الإمام وهو يترقب تحقّق نُبوءة ابن عمّه العظيم:

أين تمام المئة؟ أين الذى وُعِدتُ به؟

وجاء رجل عليه أطمارُ صوف.. كان محلوقَ الرأس لَكأنّه عاد توّاً من حجّ البيت العتيق.. تقدّم فبايع الإمام على الموت قتلاً..

فسأله الإمام عن هويّته، فأجاب: أنا أُوَيس القرَنى.

الليلة الطويلة

وصلت الحرب إلى أخطر منعطفاتها، وألقى الإمام خطاباً يزخر حماسة وإيماناً جاء فيه:

معاشر المسلمين، استشعِروا الخشيةَ.. وتَجلبَبوا السَّكينةَ، وعُضّوا على النواجذ، فإنّه أنبى للسيوف عن الهام.. وأكملوا اللأمةَ.. وقلقلوا السيوف فى أغمادها قبل سَلِها ... واعْلَموا أنّكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله؛ فعاودوا الكَرّ، واستَحْيوا من الفرّ، فإنّه عارٌ فى الأعقاب، ونارٌ يوم الحساب.. وطِيبوا عن أنفُسكم نَفْساً، وامشوا إلى الموت مَشياً سُجُجاً..

ومرّة أخرى أكّد الإمام هدف الهجوم القادم:

وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنّب؛ فاضرِبوا ثَبَجَهُ، فإنّ الشيطان كامن فى كِسْره، وقد قَدّم للوثبة يداً وأخّر للنُّكوص رِجلاً، فحمداً حمداً! حتّى ينجلى لكم عمود الحقّ وأنتمُ الأعلَوْن واللهُ معكم ولن يَتِرَكُم أعمالَكم.

وفى غَبَش الفجر بدأ الهجوم الشامل، وتزلزلت خطوط الدفاع فى جيوش الشام، وكان الإمام قد خرج فى أجمل منظر.. فقد ركب فرساً للنبىّ يُسمّى «الريح»، وقدّم بين يديه بغلةَ النبىّ «الشهباء»، وارتدى عِمامةَ رسول الله، وتوهّجت فى أذهان المؤمنين ذكريات مضيئة لرسول السماء. وها هو علىّ يقودهم فى ذات الطريق التى سار عليها نبيُّهم العظيم.

واستبدّ بمعاوية الهَلَع وهو يرى تقهقرَ قوّاته تحت ضربات المهاجمين، وأمسك بزِمام فرسه وقد قفز قلبه إلى حُنجرته وراح يدقّ بعنف كطبل مجنون..

ولم تُفلح أوامر معاوية ولا صيحاته بعمرو أن يقدّم قبائل «عكّ الأشعرين» فى تغيير الموقف.

واستمرت المعارك ستّاً وثلاثين ساعة لا يُسمَع فيها سوى «الهرير»، وبين الفَيْنة والأخرى كانت تدوّى هتافات علىّ: الله أكبر.. حتّى بلغت أكثرَ من خمسمئة.

ولم تُفلح مساعى معاوية فى وقف القتال وتوقيع هدنة مؤّقتة..

وإلى جانب معاوية وقف الرجل الذى باع آخرته بدنيا غيره.. كان يفكّر فقُتِل كيف فَكّر، ثمّ قُتِل كيف فكّر..

التفت معاوية إلى صاحبه وقد استبدَّ به يأس قاتل:

ما ترى؟.. فإنّما هو يومُنا هذا وليلتنا هذه!

وهنا نفث الشيطان فقال وهو يعرف كيف يطعن فى الخاصرة:

إنّى أعددتُ حيلةً ادّخرتُها لمِثل هذا اليوم.

قال معاوية متلهفاً:

ما هى؟!

تدعوهم إلى كتاب الله حَكَماً بينك وبينهم..

وأضاف بمكر:

فإن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه تفرّقوا.

واتّسعت عينا معاوية دهشة وأصبَحَتا أكثر جُحوظاً.

وعلى وجه السرعة جُمعت المصاحف فى واحدة من أكبر المهازل فى التاريخ..

وظهر مصحف دمشق الأعظم تحمله خمسة رماح طويلة.

مهزلة التحكيم

كان لظهور المصاحف على الرماح الأثر البالغ فى شلّ العمليات الحربية، وبدأت كلمات الاستنكار تشقّ طريقها ترشق الذين يريدون للحرب أن تستمرّ، وما أسرع أن ظهر تيّارٌ عنيف يدعو إلى وقف القتال فوراً، وحدث انشقاقٌ خطير فى صفوف جيش الخلافة، ما لبث أن تحوّل إلى كُتلة عسكرية تهدّد وتتوعد القيادة العليا.

وبذل الإمام قُصارى جهده فى توضيح خفايا «اللعبة» قائلاً:

عباد الله! امضُوا على حقّكم وصِدقكم فى قتال عدوكم، فإنّ معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى مُعَيط وحبيب بن مسلمة وابن أبى سرح والضحّاك بن قيس.. ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن..

أنا أعرَفُ بهم منكم.. قد صحبتُهم أطفالاً، وصحبتهم رِجالاً، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رِجال..

وَيْحَكم! إنّهم ما رفعوها لكم إلاّ خدعة ومكيدة!».

غير أنّ الذين لا يُدركون من الأمور إلاّ مظاهرها الفارغة قد جعلوا أصابعهم فى آذانهم وأصمّوا أسماعهم، وازدادوا عُنفاً وشَراسة، فأحدقوا بالإمام وقد برق الشرّ فى عيونهم.

وقد حدث تماسك مدهش فى صفوف أهل الشام اثر ارتفاع ذلك الشِّعار البرّاق ... فى مقابل تمزّق مريع فى جيش الإمام.

كان الجناح الأيمن بقيادة مالك الأشتر ما يزال يقاتل بضراوة ويتقدّم نحو إحراز النصر النهائى فى خُطى واسعة، ولكنّ التصدّع كان قد عمّ جبهة الإمام ممّا أنذر بوقوع انهيارٍ عام؛ ومن تلك اللحظات المثيرة بدأت مأساة الإسلام وانهيار الحضارة.

وازدادت الأمور سوءً بعد أن أصبح الإمام وسط تلك الطُغمة من الحمقى، وبات على القائد الأعلى للقوّات المسلحة أن يستجيب إلى مواقفهم، وها هو الإمام يتعجّب من ذلك فيقول:

لقد أصبحت الأُمم تخاف ظُلمَ رُعاتها؛ وأصبحتُ أخاف ظلم رعيتى!

ومن تلك اللحظة شعر الإمام بأنّ الباطل سوف يكسب الجولة إلى حين:

أما والذى نفسى بيده: ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنّهم أولى بالحق منكم، ولكنْ لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائِكم عن حقّى..».

وأخذ تيّار التمرّد يتصاعد بشكل مخيف لِيُنذر بوقوع كارثة بعد أن أُطلقت تهديدات بقتل الإمام إذا لم يُصدر أوامره إلى الأشتر بوقف العمليّات الحربيّة والانسحاب فوراً.

وهكذا توقّفت المعارك فى صفّين.. ونشطت الوفود للإعداد من أجل توقيع وثيقة التحكيم.

التاريخ يعيد نفسه

يعيد التاريخ نفسه أحياناً، فتظهر الحوادث وكأنّها قد انبعثت من جديد، حتّى فى بعض التفاصيل.. لقد وضعت الحرب أوزارها فى صِفّين، وبدأ الإعداد لتوقيع وثيقة سلام بين الفريقَين المتصارعَين؛ وهنا يُطلّ التاريخ ليُعيد ذكريات صلح قديم بين الإسلام والوثنيّة، فى وادى الحُديبية قريباً من مكّة المكرّمة.

فيومئذ أرسل أبو سفيان سُهيل بن عمرو ممثّلاً للوثنية لتوقيع معاهدة سلام مع النبىّ صلّى الله عليه وآله؛ واليوم بعث معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص ممثّلاً للقاسطين لتوقيع هُدنة مع وصىّ النبىّ وأوّل من أسلم من الرجال.

جاء عمرو ودخل خيمة الإمام، وبدأ الكاتب فى تحرير وثيقة التحكيم فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان.

وهنا تدخّل عمرو بن العاص معترضاً على الكاتب:

هو أميرُكم.. أمّا أميرنا فلا.. بل اكتُب اسمه واسم ابيه.

وتردّد الوفد العراقى وأُصيب بما يشبه اللوعة. قال الأحنف بن قيس: لا تمحوا أمير المؤمنين.. يا أمير المؤمنين.

فقال علىّ عليه السّلام: الله أكبر، سُنّةً بسُنّة رسول الله.. واللهِ إنّى لكاتب رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم الحديبية. فكتب محمّد رسول

الله، فقالوا: لستَ برسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك. فأمرنى رسول الله أن أمحوها فقلتُ: لا أستطيع، فمحاها بيده.. ثمّ قال لى: إنّك ستُدعى إلى مثلها فتُجيب.

وتناول الإمام وثيقة التحكيم ومحا عبارة أمير المؤمنين منها..

فقال عمرو بخبث:

سُبحان الله! أتُشبّهُنا بالكفّار ونحن مؤمنون!.

فقال علىّ بغضب:

يا ابن النابغة! ومتى لم تكن للفاسقين وليّاً وللمؤمنين عدوّاً؟!

فنهض ابن العاص منزعجاً:

واللهِ لا يجمع بينى وبينك مجلس بعد اليوم.

أجاب الإمام:

إنّى لأرجو أن يطهّر الله مجلسى منك ومن أشباهك.

وهكذا حُرّرت وثيقة التحكيم.

الاربعاء (۱۳ صفر سنة ۳۸ ه) مصرع حضارة

هل كان الأشعث يمثّل نفسيّة مجتمع لم يعد يستسيغ عدل علىّ صلوات الله عليه لكى يظهر بكلّ هذه القوّة فيقف فى وجه علىّ؟

هل كان الأشعث يمثل إرادة أُمّةٍ أُخلدت إلى الأرض وكانت تنظر إلى السماء فإذا بها تجعل من معاوية نِدّاً لعلىّ؟ها هو علىّ يجلس فى خيمته ليوقع وثيقة التحكيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان.. قاضى علىّ على أهل العراق ومَن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم..

إنّنا ننزل عند حُكم الله وكتابه.. فنُحيى ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحَكَمان فى كتاب الله وهما أبو موسى الأشعرى عبدالله بن قيس، وعمرو بن العاص عَمِلا به، وما لم يجدا فى كتاب الله فالسُنّة العادلة.

وأخذ الحكمان من علىّ ومعاوية ومن الجندَين المواثيق أنّهما أمينان على أنفسهما وأهلهما، والأمّة أنصار على الذى يتقاضيان عليه، وأجّلا القضاء إلى شهر رمضان من هذه السنة، وإن أحبّا أن يُؤخّراه أخّراه.

كتب فى يوم الأربعاء (۱۳ صفر سنة ۳۸ ه)

وبعد توقيع الوثيقة انسحبت الجيوش، وعاد علىّ إلى الكوفة، ورفضت بعض الفصائل دخول الكوفة و «خرجت» عن طاعة الإمام.

ومنذ تلك اللحظة وعلىّ يتلقّى الطعنات المسمومة.. فيتأوّه وحيداً.

الكارثة

اجتمع الحكمان فى «دومة الجندل» التى اختيرت جغرافياً كمكان وسط بين «العراق والشام» بين علىّ ومعاوية، فاختارها «التاريخ» ليمسك بالحضارة الإسلاميّة ويقذفها باتجاه المأساة.

فما بين «صفّين» و «دومة الجندل» انفجرت كلُّ أسباب النكبة فى حضارة الإسلام، وظهرت للعيان دمامل الجسد الإسلامىّ بعد أن

ظلّت مستورة مدّة ربع قرن أو تزيد.

سوف لا نواكب مسار المفاوضات بين عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى، لأنّ أىَّ تأملٍ عابر فى شخصيّة الرجلَين سوف يكشف بوضوح تامّ ما أسفرت عنه المباحات التى لعبت فيها الأهواء والمطامع الدور الأول والأخير فى تحديد النتيجة.

لقد أُجبر الإمام على انتخاب الأشعرىّ كممثّل له، كما أُجبر من قَبْلُ على وقف القتال والحقُّ على أبواب النصر الساحق؛ ومراجعة بسيطة لتاريخ الأشعرىّ تكشف عن مدى الحقد الذى يُكنّه هذا الرجل للإمام.

إنّ أحداثاً كبرى ووقائع مزلزلة وملابسات لا حدّ لها.. هى التى أدّت إلى وقف القتال وبدء سلسلة من المآسى انتهت بمصرع الإمام على عليه السّلام على ذلك النحو المؤسف، وإلى تنازل الإمام الحسن عن الحكم ومن ثَمّ استيلاء معاوية على دفّة الأمور فى الدولة الإسلاميّة.

وإذا كان الأشعث قد تصدّر الأحداث فى تلك الحقبة من الزمن، ولعب دوراً فى تصدّع جبهة قوّات الإمام وإحداث انهيار فى الأوضاع لصالح معاوية، فإنّ ذلك لا يدلّ على قابليّات ذاتيّة بقدْر ما يدلّ على مُجمل التغيّرات النفسيّة والفكريّة والاجتماعيّة التى طبعت عصر الإمام.

رياح الزمهرير

شهدت دُومةُ الجَندَل بدءَ المباحثات السرّية بين عقليّتَين: ماكرة وغبيّة، تتحرّكان فى اطار دُنيوىّ رخيص، وقد وضح منذ البداية أنّهما وضعا كتاب الله فوق الرفّ. فممثّل أهل الشام يتحرّك باتجاه مصر، يريد ابتلاعها كجزء من الأسلاب؛ وأبو موسى كان يتحرّك باتّجاه صهره على ابنته ليكون «خليفة للمسلمين»، وهكذا اجتمعت الإرادتان على إقصاء علىّ، كما أُقصى عن حقه من قبل.

لم يواجه عمرو بن العاص داهية العرب أيّة صعوبة فى احتواء عقليّة أبى موسى الفارغة، وقيادته باتّجاه النقطة التى يريد. لقد أدرك ابنُ العاص كيف يتغلغل فى أعماق صاحبه ويأخذ بناصيته. وبدأ سير المحادثات كما وصفها أحد المؤرخين:

عمرو بن العاص يتفنّن فى إبراز الإجلال لابى موسى فيقول:

صحبتَ رسول الله قبلى، وأنت أكبر سنّاً منى..

قال الأشعرى وهو يدخل فى صُلب الموضوع:

يا عمرو! هل لك فيما فيه صلاح الأمّة ورضى الله؟

ما هو؟

نولّى عبدالله بن عمر، فإنّه لم يُدخِل نفسه فى شىء من هذه الحروب.

قال عمرو بخبث:

أين أنت من معاوية؟

ما معاوية موضعاً لها، ولا يستحقّها بشىءٍ من الأمور.

ألستَ تعلم أن عثمان قُتِل مظلوماً؟

بلى.

فإنّ معاوية ولىّ عثمان، وبيته بَعْدُ فى قريش ما قد علمتَ، فإن قال الناس: لِمَ ولّى الأمر وليست له سابقة؟ فإنّ لك فى ذلك عذراً تقول: إنّى وجدته ولىَّ عثمان والله تعالى يقول: ومَن قُتِل مظلوماً فقد جَعَلْنا لوليّه سُلطاناً.. وهو مع هذا أخو أمّ حبيبة زوج النبىّ.. وهو أحد أصحابه..

أجاب أبو موسى:

اتّق الله يا عمرو.. أمّا ما ذكرتَ من شرف معاوية، فلو كان يستوجب بالشرف الخلافة، فكان أحقّ الناس بها أبرهة بن الصباح؛ فإنّه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا شرق الأرض وغربها.. ثمّ أىّ شرف لمعاوية مع علىّ بن أبى طالب؟! وأمّا قولك أنّ معاوية ولىّ عثمان فأولى منه ابنه عمرو (ابن عثمان)، ولكن إن طاوعتَنى أحيَيْنا سنّة عمر بن الخطاب وذِكره بتوليتنا ابنه عبدالله الحَبر..

وهنا ينبرى ابن العاص ليدفعه بالاتّجاه البعيد:

فما يمنعك من ابنى عبدالله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته؟

إنّ ابنك رجلُ صِدق، ولكنّك قد غَمستَه فى هذه الحروب غمساً.. هلمّ نجعلها للطيّب بن الطيّب عبدالله بن عمر.

يا أبا موسى، إنّه لا يصلح لهذا الأمر إلاّ رجلٌ له ضرسان.. يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر.

ويحك يا عمرو! إنّ المسلمين قد أسندوا إلينا أمراً بعد أن تقارعوا بالسيوف وتشاكّوا بالرماح، فلا نردّهم فى فتنة.

وتظاهر عمرو بن العاص بأنّه يبحث عن حلّ:

فما ترى؟

قال الأشعرى:

أرى أن نخلع هذين الرجلَين عليّاً ومعاوية، ثمّ نجعلها شورى بين المسلمين، يختارون لأنفسهم من أحبّوا.

وكاد عمرو أن يصفّق فرحاً، فتظاهر بصمت المغلوب:

رضيتُ بذلك.. وهو الرأى الذى فيه صلاح الناس.

وبالرغم من كلّ التحذيرات حول مكر ابن العاص وغدره، ولكنّ الأشعرى كان قد أصمّ أُذنيه عن سماع أيّة نصيحة.

وفى يوم شتائىّ والريح تعوى فى الصحراء، تقدّم الأشعرى ليرقى المنبر ويُعلن ما اتّفق عليه الحكمان؛ إنّ اللحظة التى ارتقى فيها الأشعرى المنبر ليخلع علياً هى لحظة رهيبة، عوت فيها ريح الشتاء، وقد انقضّ قابيل على أخيه، ودلّ الاسخريوطى فيها على ابن مريم.

وفرّ أبو موسى إلى مكّة يحمل معه عار الأبد وسبّة الدهر؛ وعاد عمرو بن العاص إلى دمشق ليسلّم على «صاحبه» بالخلافة.

غارات الشتاء

ومن تلك اللحظة بدأت حالة التداعى لأُمّة فقدت صوابها، فهى تتخبّط فى طريق الهاوية. ولم يتمكّن الإمام من وقف حالة التداعى التى عصفت بالامّة بعد أن فقدت وعيها وبصيرتها؛ لنُصغى إلى ما يقوله الإمام عليه السّلام فى ذلك المقطع التاريخىّ المهمّ:

كم أُداريكم كما تُدارى البِكارُ العمدة، والثياب المُتداعية، كلّما حِيصت من جانبٍ تهتّكت من آخر.. الذليلُ واللهِ من نصرتموه.

والإمام يدرك الطريق الذى يُصلح هذا القطيع، ولكن:

وإنّى لعالمٌ بما يُصلحكم ويُقيم أَوْدكم.. ولكن لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى.

موقف الإمام

تلقّى الإمام بحزن مريرٍ أنباء «دُومة الجَندل»، وهنا يقف أمير المؤمنين موقف التسليم الكامل لإرادة الله، فالحياة رحلة إلى الله:

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليلِ.. وأشهد أن لا إله إلاّ الله لا شريك له ليس معه إله غيره.. وأنّ محمّداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وآله.

أمّا بعد..

فإنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تُورِث الحسرة وتُعقِب الندامة..

وقد كنتُ أمرتُكم فى هذه الحكومة أمرى..

ونخلت لكم مخزون رأيي؛ لو كان يُطاع لقصير أمر؛ فأبيتُم علَيَّ إباء المخالفين الجُفاة، والمنابذين العُصاة. حتّى ارتاب الناصح بنصحه، وضنَّ الزند بقدحه، فكنتُ وإيّاكم كما قال أخو هوازن:

فلم تستبينوا النُّصحَ إلّا ضُحى الغدِ

أمرتُكُمُ أمرى بمُنعرَجِ اللِّوى

الخوارج

لقد استيقظ الخوارج ولكن فى ضُحى الغد، وكانت يقظتهم عنيفةً مجنونة مدمّرة، وانطلقت صيحاتهم تهزّ دنيا الإسلام تريد اجتثاث شجرته من الجذور:

لا حُكم إلّا لله!!

وبدأت العاصفة تزمجر لتُطيح بالصرح الإسلامىّ بأسْره، وانبرى الإمام ليفقأ عين الفتنة، ويوقف حالة التداعى، ويفضح شعارهم الذى تحوّل إلى وَثَن تُذبح عنده الضحايا؛ قال الإمام عليه السّلام:

كلمةُ حقٍّ يُراد بها باطل! نَعَم إنّه لا حُكم إلاّ لله، ولكنّ هؤلاء يقولون: لا إمرة إلّا لله، وإنّه لابُدّ للناس من أميرٍ بَرٍّ أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمنُ، ويستمتع فيها الكافر، ويُبلِّغ اللهُ فيها الأجل، ويُجمَع به الفَىء، ويُقاتَل به العدوّ، وتأمَنُ به السبل، ويُؤخَذ به للضعيف من القوىّ، حتّى يستريح بَرّ، ويُستراح من فاجر».

العودة إلى صفين

أدان الإمام موقف الحكمَين، واعتبر ذلك منافياً للإسلام، وبدأ يتأهّب للعودة إلى صفين حيث انفجر الصراع من قبل.

وفيما كان الإمام يُعبّئ قوّاته لاستئناف الحرب بدأ الخوارج تحرّكهم، وتعدّوا نطاق التنديد بالتحكيم والخلافة ونظريّة القيادة وانتقلوا إلى دائرة التخريب، وأعلنوا حرباً شعواء على كلّ من لا يُوافقهم آراءهم، وبدأوا يشكّلون خطراً داهماً لا يقلّ عن خطر العدوّ المتربّص فى دمشق.

وكان من رأى الإمام تأجيل مشكلة الخوارج إلى ما بعد تصفية الحساب مع معاوية، ولكنّ الأنباء المثيرة التى وصلت حول الفظائع التى ينفّذها الخوارج غيّرت من مسار الأحداث إلى نقطة انهيار دامية، ومرّة أخرى حاول الإمام أن يتفادى الاصطدام بهم، وأرسل إليهم يدعوهم للالتحاق لمحاربة العدوّ المشترك.

ووصل الحوار معهم إلى طريق مسدود، وكان لابدّ من مواجهتهم بعد أن استباحوا أمن المجتمع الإسلامىّ، وهكذا غيرت الجيوش طريقها باتجاه النهروان حيث عسكر الخوراج.

وحاورهم الإمام بنفسه وتمكّن من اقناع قطاع كبير منهم أعلن توبته وعودته إلى دائرة الشرعيّة، فيما أصرّ أربعة آلاف منهم على القتال.

ووقف الإمام يوجّه لهم انذاره النهائى:

فأنا نذيرٌ لكم أن تُصبحوا سرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بيّنةٍ من ربكم، ولا سُلطانٍ مُبين معكم: قد طوّحَتْ بكم الدارُ، واحتَبَلَكُم المِقدارُ، وقد كنتُ نهيتُكم عن هذه الحُكومة فأَبَيْتُم علَيَّ إباءَ المُنابِذين، حتّى صرفتُ رأيى إلى هواكم؛ وأنتم مَعاشِرُ أخفّاءُ الهام، سُفَهاء الأحلام.

واشتعلت المعركة عند جسر «النَّهْرَوان» وكانت النتيجة مذهلة، فقد أُبيد المارقون إلّا تسعة نفر فرّوا من ساحة المعركة، ولم يُستشهَد من جيش الإمام سوى تسعة نفر.

وعندما قال أحدهم:

يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم!

أجاب الإمام وهو ينظر إلى المدى البعيد:

كلاّ.. واللهِ إنّهم نُطَف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نَجَمَ منهم قَرنٌ قُطِع، حتّى يكون آخرُهم لُصوصاً سَلاّبين.

وبالرغم من تكفيرهم للإمام فإنّه أوصى الأمّة بعدم قتالهم بعده مشيراً إلى مصدر الخطر الداهم:

لا تُقاتلوا الخوارج بعدى، فليس مَن طلب الحقَّ فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه.

كان الإمام يتحرّك فى ضوء النور المنبعث من أعماق السماء، النور الذى أضاء فوق جبل حِراء، ولم يكن لَيَأْبه إلى ما يعدّه المنجّمون من خرائط للسماء، فَلْتقترن الكواكب كيف تشاء، ولْينكفئ الميزان، ولتنقدح الأبراج بالنيران، فطريق علىّ هو طريق الإسلام وطريق الرسالة.

غارات الزمهرير

ذرّ الشيطان قرنَيه فراح يعربد ويدمّر..ها هى عواصف الزمهرير تهبّ من جهة الشام حيث جثم القاسطون على أرض الإسلام؛ لقد أخلد الذين آمنوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً.

ومن هنا بدأت تأوّهات الإمام وهو يعيش فى زمن جائر.

بدأت غارات الزمهرير، والإمام يقاوم العواصف وحيداً، لقد أخلدت الأمّة إلى الأرض، وها هى الحضارة تتجه نحو الهاوية كشمسٍ تجنح للمغيب فى يومٍ شتائى.

سقطت مصر فى قبضة ابن العاص، وقد أنشب معاوية مخالبه فى أهلها وثرائها.

وهكذا توالت الغارات، تعصف بالمدن والحواضر الإسلاميّة كريحٍ مجنونة منذ أن حكم الحَكَمان بما خالف كتاب الله وسنّة رسوله.

لنُصغى إلى الإمام علىّ عليه السّلام وهو يشهد تلك الجرائم فلا يجد له ناصراً..ها هو يواجه الأمة وقد دكّت خيولُ الغارات الأنبار وهيت:

ألا وأنّى دَعَوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وإعلاناً، وقلتُ لكم: اغزُوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غُزِى قوم فى عقر دارهم إلاّ ذلّوا.. فتواكلتم وتخاذلتم حتّى شُنّت عليكم الغارات، ومُلكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامد وقد وردتْ خيلُه الانبار، وقد قَتَل حسان بن حسان البكرى، وأزال خيلَكم عن مسالحها.. ولقد بلغنى أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورُعُثها، ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام، ثمّ انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَلْم، ولا أُريق لهم دم، فلو أن امرءً مسلماً مات مِن بعد هذا أَسَفاً ما كان به مَلوماً، بل كان عندى جديراً.

ثمّ يُعرِب الإمام عن عمق دهشته إزاء هذه الحالة المريرة التى وصلت إليها الأمّة:

«فياعجباً!.. عجباً.. واللهِ يُميت القلب ويَجلب الهمّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، فقُبحاً لكم وتَرَحاً حين صِرتُم غَرَضاً يُرمى.. يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزَون ولا تَغْزُون، ويُعصى الله وترضَون!..

وهنا تبلغ الآلام ذروتها فينفجر القلب الكبير ويتشظّى حِمماً، فيخاطب الضميرَ النائم بلهجة كلّها غضب:

«يا أشباهَ الرجال ولا رجالَ! حُلومُ الأطفال.. وعقولُ رَبّات الحِجال، لَوَدِدتُ أنّى لم أَرَكم ولم أعرفكم؛ معرفةً واللهِ جَرَّت ندماً، وأعقبَتْ سَأماً ... قاتَلَكُم الله! لقد ملأتُم قلبى قَيْحاً، وشحنتم صدرى غيظاً، وجرّعتمونى نُغَبَ التَّهْمام أنفاساً »....

ثمّ يعبّر عن مظلوميّته وضياع عقله الكبير وسط نقيق الحمقى، فيقول:

وأفسدتُم علَيَّ رأيى بالعصيان والخذلان، حتّى لقد قالت قريش: إنّ ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا عِلم له بالحرب: للهِ أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراساً.. وأقدمُ فيها مقاماً منى! لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرين، وهأ أنا ذا قد ذَرَّفت على الستّين.. ولكن لا رأىَ لمِن لا يُطاع.

وها هو الإمام يقف حائراً، يتساءل عمّا ألمّ بالأُمّة، بينما الضحّاك بن قيس يُغير على قوافل الحجيج فى الشهر الحرام.. ليبُثّ الرعب فى أيام أرادها الله أن تكون مُفعمة بالسلام:

أيّها الناس المجتمعةُ أبدانُهم.. المختلفةُ أهواؤهم؛ كلامكم يُوهى الصُّمَّ الصِّلاب، وفِعلكم يُطمع فيكم الأعداء!

تقولون فى المجالس كَيتَ وكيت، فإذا جاء القتال قُلتم حِيدى حياد! ما عزّت دعوةُ من دعاكم، ولا استراح قلبُ من قاساكم، أعاليلُ بأضاليل، وسألتمونى التطويل، دفاع ذى الدَّين المَطُول ».....

وتنفجر تساؤلات الإمام المظلوم:

لا- يمنع الضيم الذليل:.. ولا يُدرَك الحق إلّا بالجدّ!.. أىَّ دارٍ بعد داركم تمنعون؟ ومع أىّ إمامٍ بعدى تقاتلون؟.. المغرور واللهِ مَن غررتموه.. ومَن فاز بكم فقد فاز واللهِ بالسهم الأخيب..

ومَن رمى بكم فقد رمى بأَفْوَقَ ناصل.. أصبحتُ والله لا أُصدّق قولكم؛ ولا أطمع فى نصركم؛ ولا أوعد العدوّ بكم.. ما بالكم؟! ما دواؤكم؟! ما طبّكم؟!

وتبقى تساؤلات الإمام دون جواب؛ فيغضب من أجل الله ويحاول هزّ الضمير المثقَل بالخَدَر.. المصفَّد بأغلال الخوف.

ما بالكم؟! أمخرسون أنتم؟!

وجاءه جواب واهن:

يا أمير المؤمنين، إن سرتَ سِرنا معك!!

يا لهذه الأمّة؟! تطلب من إمامها أن يترك كلّ شىء ليتصدّى إلى الغارات هنا وهناك، بينما معاوية يربض فى دمشق يخطّط كيف يقضم «تراث محمّد صلّى الله عليه وآله»:

ما بالكم لا- سُدِّدتم لرُشد، ولا- هُديتم لقَصد! أفى مثل هذا ينبغى لى أن أخرج؟! وإنّما يخرج فى مثل هذا رجلٌ ممّن أرضاه من شجعانكم وذوى بأسكم، ولا ينبغى لى أن أدع الجُند والمصر وبيت المال وجِباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر فى حقوق المطالبين، ثمّ أخرُج فى كتيبة أتبع أخرى ... وإنّما أنا قطب الرَّحى تدور علَىّ وأنا بمكانى».

لقد بدأ عصر التيه وسوف تتيه أُمّة الإسلام كما تاه قوم موسى من قبل، تاهوا أربعين سنة، لنُصغِ إلى الإمام وهو يبشّر بالتيه والضياع لأُمّة لم تعرف قَدْر إمامها وراعيها، فتركته وحيداً فى مواجهة القاسطين!

أيّها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحقّ، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم مَن ليس مثلكم، ولم يَقوَ من قَوِىَ عليكم.. لكنّكم تهتم متاه بنى إسرائيل..

ولعمرى لَيُضعّفنّ لكم التِّيهُ من بعدى أضعافاً بما خَلّفتُم الحقّ وراء ظهوركم..».

وهكذا غطّت الأُمّة فى نوم عميق، وضُرب على آذانها فلم تعد تسمع كلمات سيد الأوصياء فى التاريخ.

ها هو الإمام يستنهض فيهم بقايا الروح.. يدعوهم لمواجهة الزمهرير القادم من أرض الشام حيث ربض الشيطان.

ولكن لا شىء سوى صمت المقابر ... وقام رجل ليقول:

ها أنا ذا وأخى، فمُرْنا بأمرك..

فيقول الإمام متأسفاً:

وأين تقعان ممّا أريد؟

بل لقد وصل الأمر أن دعاهم للجهاد وقد عصفت الغارات بالمدن وقُتِل نِسوةٌ وأطفال.. فلم يستجب أحد.. فأخذ الإمام سلاحه ومضى صوب النخيلة وحيداً!

ولكنّ عليّاً سلام الله عليه لم يكن الرجلَ الذى يخشى شيئاً حتّى لو ظلّ وحيداً، وها هى كلماته وهو يخاطب أخاه وقد خوّفه عواقب الطريق الذى سلكه دون مساومة أحد: «لا يزيدنى كثرةُ الناس حولى عِزّة، ولا تفرّقهم عنى وحشة، ولا تحسبنّ ابنَ ابيك ولو أسلمه الناس متضرّعاً متخشّعاً، ولا مُقرّاً للضيم واهناً».

وهو الذى قال مرّة:

«واللهِ لو تظاهرتِ العربُ على قتالى لما ولّيتُ عنها».

الجمعة (۱۲ رمضان سنة ۴۰ ه)

أطلّ شهر رمضان بوجهه الكريم ليدخل الإنسان المؤمن عوالم الملكوت؛ رياح شباط تجوس خلال المدينة المشهورة بالغدر.

صام عليّ.. بدأ رحلته إلى الملكوت، يتضوّر جوعاً، الجسد الآدمى يذوب أمام سطوع الروح وهى تتوهّج كلّما اقتربت ليلة القدر.

ها هو عليّ يرتقى المنبر.. فكأنّه يتأهّب للرحيل.. كان يرتدى قميصاً من صوف.. فى رجلَيه نعلان من ليف خَصَفَهما بنفسه.. جبينه يتألّق نوراً من أثر السجود.. حبس التاريخ أنفاسه وهو يُصغى إلى كلمات رجل على وشك الرحيل:

«الحمد لله الذى إليه مصائر الخَلْق.. وعواقبُ الأمر..».

...« لم يُولَد سبحانه فيكون فى العزّ مُشارَكاً.. ولم يَلِد فيكونَ موروثاً.. ولم يتقدّمه وقت ولا زمان »....

ها هو يُذكِّر الناس بالرحيل ... لقد أزِفَت الساعة:

أُوصيكم عِبادَ الله بتقوى الله الذى ... ألبسكم الرِّياش، وأسبغ عليكم المَعاش؛ فلو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سُلَّماً أو لدَفْع الموت سَبيلاً لكان ذلك سليمان بن داوود عليه السّلام؛ الذى سخّر له ملك الجن والإنس مع النبوّة وعظيم الزُّلفة، فلما استوفى طُعمتَه واستكمل مُدّته، رمته قِسىُّ الفَناء بنِبال الموت.. وأصبحت الديار منه خالية والمساكن مُعطّلَة، وورثها قومٌ آخرون، وإنّ لكم فى القرون السالفة لعِبرة!..

وهنا يفجّر أسئلة التاريخ ليتساءل عن مصير حضارات سادت.. ثم بادت:

«أين العمالقة وأبناء العمالقة؟! أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرَّسّ الذين قتلوا النبيين، وأطفأوا سُنن المرسلين، وأحيوا سُنن الجبّارين ...؟! أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟!».

وها هو يُذكّرهم بأنّه وريث الأنبياء، وأنّه خير الأوصياء، فهل ينتظرون مَن هو أهدى سبيلا:

أيّها الناس، إنّى قد بثثتُ لكم المواعظ التى وَعظ الأنبياء بها أُممهم، وأديت إليكم ما أدّت الأوصياءُ إلى مَن بعدهم.. للهِ أنتم! أتتوقّعون إماماً غيرى يطأ بكم الطريق ويُرشدكم السبيل؟!».

لقد بدأ عصر الانحطاط فى اللحظة التى هوى فيها الشهدا فى «صفين»:

ألا إنّه قد أدبر مِن الدنيا ما كان مُقبلاً، وأقبل منها ما كان مُدبراً، وأزمع الترحال عبادُ الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى، بكثيرٍ من الأخرة لا يفنى.

ما ضرّ إخوانَنا الذين سُفِكت دماؤهم وهم بصفّين ألّا يكونوا اليوم أحياءً؟ يُسيغون الغُصص ويشربون الرَّنْق!..

وكأنّ الإمام ينظر هنا وهناك يبحث عن إخوان له طوَوا معه الطريق إلى صفّين:

«أين إخوانى الذين ركبوا الطريق ومضوا على السحقّ؟

أين عمّار؟

وأين ابن التيّهان؟

وأين ذو الشهادتَين؟

وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المَتيّة، وأُبْرِد برؤوسهم إلى الفَجَرة؟!».

وهنا يصل الإمام إلى ذروة التأثّر، فيضرب على لحيته الكريمة.. ويستغرق فى البكاء.. البكاء من أجل كلّ الذين رحلوا وجباههم مرفوعة، إلى الشمس، فتنبعث من أعماق قلبه الكسير آهة حرّى:

أوّه على إخوانى الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبّروا الفَرْض فأقاموه.. أحيوا السُنّة وأماتوا البِدعة.. دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتّبعوه..

ثمّ أطلق صيحاته كأنّه يخاطب التاريخ والأجيال:

«الجهادَ الجهاد عباد الله!..

ألا وإنّى مُعسكِرٌ فى يومى هذا؛ فمَن أراد الرواح إلى الله فليخرج!».

صفين.. هاجس العودة

سوف تبقى «صفّين» أرض التاريخ.. نقطة للحضارة وميداناً للصراع.. الصراع الخالد بين الخير والشرور.. وعلى الذين يريدون توجيه حضارة الإسلام من جديد أن يعودوا إلى صفّين؛ إلى خنادق الصراع.. خلف «القائد».

ها هو علىّ يطالب الأُمّة بالعودة إلى صفّين.. لتحطيم الأوثان البشرية.. لإحراق العِجْل.. وليشهد رمضان انتصار الروح.. انتصار محمّد من جديد.. وهزيمة أبناء الأحزاب...

ليالى البرد

رياح شباط الباردة ما تزال تجوس الأزقّة، وها هو خير الأوصياء فى التاريخ.. يخطو باتّجاه الرحيل.. ليالى رمضان تتألّق بنورٍ عجيب لا تستمدّه من ضوء القمر.. والأسحار تزخر بالنجوم كقلوب واهنة تنبض من بعيد.. تراقب من أغوارها السحيقة إنساناً يحمل ميراث الأنبياء.

الرجل الذى طهّرته السماء، يمضى لياليه الأخيرة فى بيوت أبنائه وبناته.. خاوى البطن، لا يُفطر إلّا على كسيرات من خبز.. الجسد البشرى يذوب تحت وهج الروح العظيم...

الخميس (۱۸ رمضان ۴۰ ه)

أفَلَت شمس الخميس سريعاً كطبعها فى أيام شباط.. نسائم باردة تهبّ من ناحية الشمال تُبشّر بليالى الزمهرير الطويلة؛ وكان الأُفق الغربى شاحباً فكأنّه يعلن عن غدٍ غائم.

السَحَر ظلمات يتراكم بعضها فوق بعض.. والنجوم تشتدّ سطوعاً فى سماء غارقة فى الليل..

الإمام جالس فى المحراب، قد أوهنه السهر والانتظار.. هوّمت عيناه.. ليلج عالماً آخر.. عالماً شفافاً.. تدفّق شلّال من نور محمّد..

أضاءت روحَه المُترعة بالحزن ابتسامةُ آخر الأنبياء.. حبيب الله.. خفّ علىّ للقاء الحبيب يشكو إليه وَيْلات الأرض.. همس علىّ بأسىً:

يا رسول الله.. ماذا لقيتُ من أُمّتك من الأود واللدد؟!

قال محمّد صلّى الله عليه وآله لأخيه:

ادْعُ عليهم:

ووجد عليّ نفسه يتضرّع إلى السماء يشكوها ظُلم الأمّة:

أبدلنى اللهُ بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شرّاً لهم منّى.

لقد استشرى الانحراف فى روح الأمّة وباتت الأشياء تُرى بالمقلوب، ومن هنا كانت محنة عليّ، وهو يشقّ طريقه على هدى محمّد صلّى الله عليه وآله فى دربٍ قلّ سالكوه، فإذا هو بين فريقَين: أحدهما يكْفر به ويكفّره، وآخر يعبده.

اغتيال الشمس

تطلّع عليّ عليه السّلام إلى السماء الزاخرة بالنجوم.. الفضاء مشحون بشىء عجيب.. لَكأنّ السماء تكاد تمسّ الأرض، أو أنّ الأرض تتعلّق بالسماء.. هتف عليّ والناس نيام:

إنّها الليلة التى وُعِدتُ فيها! والله ما كَذبت ولا كُذِبت.. الظلمة تتكاثف، الفجر ما يزال يمزّق حُجُب الظلام.. وعليّ يتخطّى باحة المنزل وقد ولّى وجهَه شَطْر المسجد الأعظم.. صاح الوزّ.. كأنّه يطلق استغاثة أو يحذّر من المجهول؛ تمتم عليّ:

صوائح.. تتبعها نوائح..

ومضى عليّ يشق طريقه فى ظلمة الفجر.. أزفت لحظة الرحيل.. هناك فى زاوية من المسجد سيف مسموم.. سيف يشبه ثعباناً منتفخاً بالسم..

هتف أمير المؤمنين ليوقظ النيام:

الصلاةَ! الصلاةَ! عِباد الله!

تحرّك الثعبان.. تلوّى.. ظهر صوت يشبه فحيح الأفاعى.. صوت ابليس وهو ينفخ.. صفير موحش وبريق مخيف.. وسيف جبان يهوى باتّجاه وجهٍ ما سجد لغير الله.. وتفجّرت الآلام، وهتف عليّ وقد هوى فى المحراب؛ وقد غمرت وجهَه ولحيته الدماء:

فُزتُ وربِّ الكعبة..

وظهر ابليس ينظر بحقد إلى آدم وقد اجتباه ربّه.. وبدا قابيل يتشظّى غيظاً وهو يرى قُربان أخيه ترفعه السماء.. فسوّلت له نفسه قَتْل أخيه فقتله. فأظلمت الأرض وهبّت عاصفة الزمهرير..

انطفأت قناديلُ المسجد.. انكفأت الشموع.. وفرّ الربيع، وبدا محراب المسجد الأعظم خاوياً تغمره ظُلمة مخيفة.. وعليّ فى منزله يذوب جسده تحت وهج الروح وهى تتأهّب للرحيل..

همسات قبل الرحيل

رغم كلّ الضجيج والصخب الذى ضجّت به تلك الحقبة من الزمن.. حيث عربدة الخنازير، وصخب الشهوات.. وحمّى اللذائذ.. ولكن عليّاً عليه السّلام كان يُصغى إلى نداءات قادمة من بعيد.. إنّها نداءات الرحيل،ها هو عليّ يفلسف الحياة.. يفضح كلّ بهارج الدنيا بكلمتين:

الرحيلُ وَشيك..

حتّى إنّ المرء ليحسّ سرعة الرحيل من ايقاع الكلمة.. لكأنّها سهم يخطف قرب الأُذن.. لا تشعر به ولا تسجّل سوى صوت قصير.. قصير للغاية..

وها هو ينادى شهود عصره:

تَجهَّزوا رحمكم الله! فقد نُودِىَ فيكم بالرحيل!

لقد عاش عليّ غريباً فى عصره.. لم تكن غربته غربة وطن. لقد فقد أحبّته.. إنّه يحنّ إليهم يتمنّى لُقياهم.. فيقول:

فَقْدُ الأحبّةِ غُربة..

كلمات تنضح حزناً وأسىً.. ولوعة..

وعاش عليّ يحارب الشرور.. إنّه يعرف كيف يكافحها.. يعرف أنّ ميدانها الأول فى أعماق النفس الإنسانيّة.. لهذا تراه يهمس بصوت هادئ:

احصُد الشرَّ من صَدْر غيرك بقَلْعه من صدرك..

وعلى يكشف للإنسانية مأساة العقل البشرىّ، أنّها تكمن فى الأطماع.. وها هى العقول تتساقط أمام الأطماع.. عندما تتحوّل الطموحات الرخيصة إلى صواعق تنقضّ على العقول فتُطفئ فيها وهجها السماوى فيقول:

أكثر مصارعِ العُقول تحت بُروق المطامع.

ويقول:

الطمع رِقٌّ مُؤبَّد..

ويقول:

الطامع فى وثاق الذلّ.

ويلتفت إلى رفاقه وقد مرّ بمزبلة فيقول:

هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس..

وهذا ما بخل به الباخلون.

وعلىّ يرسم الطريق لمن يريد أن يحيا كريماً، فيهمس فى الآذان الواعية:

مِن أشرف أعمال الكريم غفلتُه عمّا يعلم.

ويعلن رأيه فى الثَّراء الحقيقى قائلاً:

كفى بالقناعة مُلكاً، وبحُسن الخلق نعيماً.

وعلىّ يرفع لواء الرحيل لأن:

الدنيا دارُ ممرٍّ لا دار مقرّ..

والمجد لمن وعى كلمات علىّ.. فوهب لنفسه الحرّية.

وعلىّ يثير أسئلة الإنسان حول ظاهرة محيّرة.. عندما يسكت الإنسان يفقد قدرته على النطق والتعبير؛ ويسكت خاشعاً فى حضرة الموت.. عندما يجلس الكائن البشرى، وقد استسلم بذلّ؛ يتساءل علىّ وهو يخاطب الإنسان:

هل تحسّ به إذا دخل منزلاً؟ أم هل تراه إذا توفّى أحداً؟ بل كيف يتوفّى الجنينَ فى بطن أُمّه؟!.. أيلج عليه من بعض جوارحها؟ أم الروح أجابته بإذن ربّها؟!.. أم هو ساكن معه فى أحشائها؟!..

وينظر على إلى السماء فتمتلئ روحه إجلالاً للواحد القهّار فيقول:

كيف يصف إلهَه مَن يعجز عن صِفة مخلوقٍ مِثْله؟!

وستبقى لحظة الموت ميعاداً وموعداً.. لغزاً يحيّر الإنسان.

وستبقى النفس البشرية عاجزة عن اكتشاف ذلك المجهول وقد قال خالق النفس وبارئ الروح: وما تدرى نَفسٌ ماذا تَكسِب غداً وما تدرى نفسٌ بأىّ أرضٍ تموت.

وها هو علىّ يخاطب الإنسانية جمعاء:

«أيّها الناس! كلُّ امرئٍ لاقٍ ما يفرّ منه فى فِراره. الأجَلُ مَساقُ النفس؛ والهرب منه موافاته »....

كلّما أمعن الإنسان فى فراره من الموت كلّما أسرع فى خُطاه نحو معانقة ما يفرّ منه.. حتّى لو أخفى نفسه فى البروج المشيّدة.

فيقول علىّ صلوات الله عليه:

كم اطّردتُ الأيّامَ أبحثُها عن مكنون هذا الأمر، فأبى الله إلّا إخفاءه! هيهاتَ! عِلمٌ مخزون!

ويلتفت الإمام علىّ إلى الذين تحلّقوا حوله.. وقد أوشك على الرحيل فيقول:

أنا بالأمس صاحبُكم، وأنا اليوم عِبرة لكم؛ وغداً مفارقكم..

لقد انتهى كلّ شىء وسوف يرحل سيّد الأوصياء فى التاريخ، ما زال يتكلّم فتتدفّق ينابيعُ الحكمة، ويلخّص وجوده قائلاً:

وإنّما كنتُ جاراً جاوركم بدنى أيّاماً..

وستعقبون منى جُثّة خلاء..

ساكنةً بعد حراك..

وصامتة بعد نطق..

ليعظكم هدوِّى وخفوتُ إطراقى.. وسكونُ أطرافى..

وستكتشف الإنسانيّة عليّاً بعد رحيله.. وهو يعرف ذلك فيهتف عالياً:

غداً ترون أيّامى ويُكشَف لكم عن سرائرى.. وتعرفوننى بعد خلوّ مكانى.. وقيام غيرى مقامى..

حديث مع الأجيال

رياح شباط تهبّ مجنونة.. تنخر فى العظام.. تبشّر بالويل والثُّبور.. الإمام يتأهّب للرحيل.. لقد مضى عهد السلام..

أجرى الطبيب فحوصاته.. لقد استشرى السم.. وأمير المؤمنين مهدّد بالموت بين لحظة وأخرى.. الروح العظيم يتوهّج.. فيذوب الجسد الآدمى.. والجبين الذى لامس الشمس ينضح عرقاً.. الشمس تهوى فى هوّة الأفول.. رَمَق علىّ ولَدَيه.. سبطَى محمّد وريحانتَيه من الدنيا..

علىّ يتحدّث يوصى الأجيال.. وقد توقّف التاريخ يُصغى لميراث خير الأوصياء:

أُوصيكما بتقوى الله! وألّا تَبغَيا الدنيا وإن بغتكما..

ولا تحزنا على شىءٍ منها زُوِى عنكما.. وقولا بالحقّ.. واعملا للأجر..

وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عَوناً..

وهنا يهمس فى أذن الأجيال القادمة فيقول:

أُوصيكما وجميعَ ولدى وأهلى..

ومَن بَلَغه كتابى..

بتقوى الله.. ونَظْم أمركم.. وصلاح ذات بينكم.. فإنّى سمعتُ جدّكما صلّى الله عليه وآله يقول: «صلاحُ ذاتَ البَين أفضل من عامّة الصلاة، والصيام». ثّم يتدفّق النبع الإنسانىّ الذى يبنى العالم الأخضر:

«والله.. الله فى الايتام فلا تَغِبّوا أفواههم.. ولا يَضيعوا بحضرتكم.. والله الله فى جيرانكم.. فإنّهم وصيّةُ نبيكم ما زال يُوصى بهم حتّى ظنّنا أنّه سيورّثهم..

والله الله فى القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيرُكم..

والله الله فى الصلاة فإنّها عمود دينكم..

والله الله فى بيت ربّكم لا تُخلوه ما بقيتم، فإنّه إن تُرِك لم تناظروا..

والله والله فى الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم فى سبيل الله..

وعليكم بالتواصل والتباذل: وإيّاكم والتدابر والتقاطع ... لاـ تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيولّى عليكم شراركم.. ثمّ تدعون فلا يُستجاب لكم...

وهنا يوجّه الإمام خطابه إلى بنى عبدالمطلب حتّى لا يصنعوا من ثيابه الملوّنةً بدم الشهادة قميصاً آخر فيقول:

«يا بنى عبدالمطلب لا ألفينّكم تخوضون دماءَ المسلمين خوضاً تقولون: «قُتِل أمير المؤمنين.. ألا لا تقتلّن بى إلّا قاتلى..».

وهو يريد أن يغلق إلى الأبد ملف الحادثة:

انظُروا إذا أنا مِتّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربةً بضربة.. ولا تُمثّلوا بالرجل.. فإنّى سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «إيّاكم والمُثلة ولو بالكلب العقور».

وسكت على.. ليتحدّث فيما بعد بلغة الصمت.. ليبقى قبره المجهول عشرات السنين يرسم علامة استفهام كبرى على العهود المظلمة التى تلت اغتيال الشمس.

نبوءات الزمن القادم

وعلى يستشرف صفحات الغد القادم.. ويرى الآفاق البعيدة: ويلات الحروب.. وأمواج الفِتَن.. وعواصف الزمهرير:

•سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شىء أخفى من الحقّ.. ولا أظهرَ من الباطل.. ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله.. وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أَبْورَ من الكتاب إذا تُلى حقَّ تِلاوته.. ولا أنفق منه إذا حُرِّف عن مواضعه.. ولا فى البلاد شىء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر..

فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم..

ومعهم وليسا معهم..

لأنّ الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا.. فاجتمع القوم على الفُرقة وافترقوا على الجماعة.. كأنّهم أئمّة الكتاب وليس الكتاب إمامهم.. فلم يبق عندهم منه إلّا اسمه..

•ويبشّر الإمام بعواصف الزمهرير التى ستهبّ من الشام بعد حين فيقول: «أما إنّه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب البلعوم.. مُنْدحِقُ البطن (عظيم البطن بارزُه).. يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد.. فاقتلوه، ولن تقتلوه!.. ألا وإنّه سيأمركم بسبّى والبراءة مِنّى، فأمّا السبّ فسُبّونى فإنّه لى زكاة، ولكم نجاة، وأمّا البراءةُ فلا تتبرّأوا منى، فإنّى وُلِدت على الفِطْرة، وسَبقتُ إلى الإيمان والهجرة.

•وسوف يبدأ زمن السقوط والانحطاط عندما ينقضّ أعداء الإسلام القدامى على دين الله الحقّ.. وتبدأ الحقبة الأمويّة المظلمة: «واللهِ لا يزالون حتّى لا يَدَعوا لله مُحرّماً إلّا استحلّوه، ولا عقداً إلّا حلّوه»، وستعمّ المأساة المدن والبوادى:

«حتّى لا يبقى بيتُ مَدَر ولا وَبَر إلّا دخله ظلمُهم».

وسيبدأ زمن البكاء:

«وحتّى يقوم الباكيان يبكيان: باكٍ يبكى لدِينه، وباك يبكى لدنياه».

•وسيبدأ زمن الويلات، عندما تشتعل الحروب المدمّرة، وها هى البصرة تحترق فى أتون المعارك: وستُملأ الأهوار بالجماجم.

يا أحنف، كأنّى به وقد سار بالجيش الذى لا يكون له غبار ولا لجَب ولا قعقعة لُجُم، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم، كأنّهم أقدام النَّعام..

وسوف تتهدّم البيوت وتخرّ سقوف المنازل:

وَيْلٌ لسككم العامرة والدور المزخرفة.. التى لها أجنحة كأجنحة النسور، وخراطيم كخراطيم الفِيَلة.. مِن أولئك الذين لا يُندَب

قتيلهم، ولا يُفقد غائبهم.. أنا كابُّ الدنيا لوجهها، وقادرها وبقَدْرها، وناظرها بعينها..

وها هى الأقوام فى آسيا الصغرى تترك مراعيها لتجتاح بلاد الإسلام:

كأنّى أراهم قوماً «كأنّ وجوههم المَجانّ المُطَرَّقة».. يلبسون الرقّ والديباج، ويعتقبون الخيل العتاق، ويكون هناك استحرار قتل.. حتّى يمشى المجروح على المقتول، ويكون المُفِلت أقلّ من المأسور!».

ويشعر شهود ذلك العصر بالرهبة، وقد انكشفت أمامهم صفحات من الغد القادم.. فيقول أحدهم وكان كلبيّاً:

لقد أُعطيتَ يا أمير المؤمنين عِلم الغيب!

ويبتسم علىّ قائلاً:

يا أخا كلب، ليس هو بعِلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذى علم، وإنّما علم الغيب عِلم الساعة، وما عدد الله سبحانه بقوله: إنّ الله عنده عِلمُ الساعةِ ويُنزِّل الغيثَ ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت ... فيعلم الله سبحانه ما فى الأرحام من ذَكَر أو أُنثى، وقبيح أو جميل، وسخىّ أو بخيل، وشقىّ أو سعيد، ومَن يكون فى النار حطباً، أو فى الجنان للنبيين مُرافِقاً.. فهذا عِلم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلّا الله.. وما سوى ذلك فعِلمٌ علّمه الله نبيَّه فعلّمنيه؛ ودعا لى بأن يعيه صدرى وتضطمّ عليه جوانحى.

ليلة القدر

وفى ليلة الحادى والعشرين من شهر رمضان المبارك رحل علىّ.. وفى قلب الليل خرج رجال يُعَدّون بالأصابع يحملون الجثمان العظيم ليطووا مسافة خمسة أميال خارج الكوفة.. وهناك فى بقعة طاهرة جرت مراسم دفن سيّد الأوصياء فى التاريخ.. لقد غاب علىّ عن هذه الدنيا ليسطع اسمُه فى ضمير الأجيال.. ويبقى خالداً فى وجدان الإنسانية على مرّ العصور والأيام..

وفى تلك الليلة عرجت روح ذلك العظيم تتخطّى السماوات فى الليلة التى تُوفّى فيها موسى بن عمران ورُفع فيها عيسى ابن مريم.

وهكذا انطفأت الشمس التى أضاءت العالم حيناً من الدهر وغمرته بالنور والدفء ليبدأ زمن الزمهرير.. وتضجّ الأرض بعواء الذئاب.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و

عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی

بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩